في ظلال القرآن

الجزء الحادي والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الحادي والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة العنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ – إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ – وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ : كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : ٱللَّهُ. فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ * ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ : ٱللَّهُ . قُلِ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ. فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ؟

« وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ » . .

هذا هو الشوط الأخير فى سورة العنكبوت . وقد مضى منها شوطان فى الجزء العشرين . ومحور السورة ـ كما أسلفنا ـ هو الحديث عن الفتنة والابتلاء لمن يقول كلمة الإيمان ، لتمحيص القلوب وتمييز الصادقين والمنافقين بمقياس الصبر على الفتنة والابتلاء .. وذلك مع التهوين من شأن القوى الأرضية التى تقف فى وجه الإيمان والمؤمنين ؛ وتفتنهم بالأذى وتصدهم عن السبيل، وتوكيد أخذ الله للمسيئين ونصره للمؤمنين الذين يصبرون على الفتنة ، ويثبتون للابتلاء . سنة الله التى مضت فى الدعوات من لدن نوح عليه السلام . وهى السنة التى لا تتبدل ، والتى ترتبط بالحق الكبير المتلبس بطبيعة هذا الكون ، والذى يتمثل كذلك فى دعوة الله الواحدة التى لا تتبدل طبيعتها.

وقد انتهى الشوط الثانى فى نهاية الجزء السابق بدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين به إلى تلاوة ما أوحى إليه من الكتاب ، وإقامة الصلاة لذكر الله ، ومراقبة الله العليم بما يصنعون .

وفى الشوط الأخير يستطرد فى الحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب قبله . ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن — إلا الذين ظلموا منهم ، فبدلوا فى كتابهم، وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم — وأن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله مصدق لما معهم .

ثم يتحدث عن إيمان بعض أهل الكتاب بهذا الكتاب الأخير على حين يكفر به المشركون الذين أنزل الله الكتاب على نبيهم ، غير مقدرين لهذه المنة الضخمة ، ولا مكتفين بهذا الفضل المتمثل فى تنزيل الكتاب على رسول منهم ، يخاطبهم به ، ويحدثهم بكلام الله . ولم يكن يتلو من قبله كتابا ولا يخطه بيمينه ، فتكون هناك أدنى شبهة فى أنه من عمله ومن تأليفه !

ويحذر المشركين استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، وحالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء فى مكة ؛ يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده . يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمان فى لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب؛ فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية ، ويلمسها هكذا إلا خالقها اللطيف الخبير .

وينتقل من هذا إلى التعجيب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم فيقرون لله — سبحانه — بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتنزيل الماء من السماء ، وإحياء الأرض الموات ؛ وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين .. ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ، ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به . ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق . وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة ، ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختم السورة بوعد من الله أكيد بهداية المجاهدين فى الله ، يريدون أن يخلصوا إليه ، مجتازين العوائق والفتن والمشاق وطول الطريق ، وكثرة المعوقين .

***

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن — إلا الذين ظلموا منهم — وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ..

إن دعوة الله التي حملها نوح — عليه السلام — والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد — صلى الله عليه وسلم — لهي دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد ، هو رد البشرية الضالة إلى ربها ، وهدايتها إلى طريقه ، وتربيتها بمنهاجه . وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة ، تعبد إلها واحداً . وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله . وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان ، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون .

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام ؛ والتي تقررها هذه الآية من القرآن ؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب ، أو جنس ، أو وطن . أو تبادل أو تجارة . ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله ، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان ؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان ؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان . ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان .

ومن ثم يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر . . « إلا الذين ظلموا منهم » فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة . فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة . وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عند ما قامت له دولة في المدينة .

وإن بعضهم ليفترى على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارد من المشركين . فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم ، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة ! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه . فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم ، ولم ينحرف عن دين الله . وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات .

« وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . .

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق والنزاع ، والجدل والنقاش . وكلهم يؤمنون بإله واحد ، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم ، وهو فى صميمه واحد ، والمنهج الإلهى متصل الحلقات .

« وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » ..

« كذلك » . على النهج الواحد المتصل . وعلى السنة الواحدة التى لا تتبدل . وعلى الطريقة التى يوحى بها الله لرسله « كذلك أنزلنا إليك الكتاب » . . فوقف الناس بإزائه فى صفين: صف يؤمن به من أهل الكتاب ومن قريش ، وصف يجحده ويكفر به مع إيمان أهل الكتاب وشهادتهم بصدقه ، وتصديقه لما بين أيديهم . . « وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » .. فهذه الآيات من الوضوح والاستقامة بحيث لا ينكرها إلا الذى يغطى روحه عنها ويسترها ، فلا يراها ولا يتملاها ! والكفر هو التغطية والحجاب فى أصل معناه اللغوى ، وهو ملحوظ فى مثل هذا التعبير .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذن لا رتاب المبطلون » ..

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها . فرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عاش بينهم فترة طويلة من حياته ، لا يقرأ ولا يكتب ؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذى يعجز القارئين الكاتبين . ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئا كاتبا . فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم ؟

ونقول : إنه يتتبع مواضع شبهاتهم حتى الساذج الطفولى منها . حتى على فرض أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان قارئا كاتبا ، ما جاز لهم أن يرتابوا . فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر . فهو أكبر جدا من طاقة البشر ومعرفة البشر ، وآفاق البشر . والحق الذى فيه ذو طبيعة مطلقة كالحق الذى فى هذا الكون . وكل وقفة أمام نصوصه توحى للقلب بأن وراءه قوة ، وبأن فى عباراته سلطانا ، لا يصدران عن بشر !

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » ..

فهو دلائل واضحة فى صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينة فى صدورهم ، تطمئن إليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلا وهى الدليل . والعلم الذى يستحق هذا الاسم ، هو الذى تجده الصدور فى قرارتها ، مستقرا فيها ، منبعثاً منها ؛ يكشف لها الطريق ، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ! « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .. الذين لا يعدلون فى تقدير الحقائق وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

« وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » ..

يعنون بذلك الخوارق المادية التى صاحبت الرسالات من قبل فى طفولة البشرية . والتى لا تقوم حجة إلا على الجيل الذى يشاهدها . بينما هـذه هى الرسالة الأخيرة التى تقوم حجتها على كل من بلغته دعوتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ثم جاءت آياتها الخوارق آيات متلوة من القرآن الكريم المعجز الذى لا تنفد عجائبه ؛ والذى تتفتح كنوزه لجميع الأجيال ؛ والذى هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، يحسونها خوارق معجزة كلما تدبروها ، وأحسوا مصدرها الذى تستمد منه سلطانها العجيب !

« قل : إنما الآيات عند الله » .. يظهرها عند الحاجة إليها ، وفق تقديره وتدبيره . وليس لى أن أقترح على الله شيئا . ليس هذا من شأنى ولا من أدبى « وإنما أنا نذير مبين » . أنذر وأحذر وأكشف وأبين ؛ فأؤدى ما كلفته . ولله الأمر بعد ذلك والتدبير .

إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة . وإيضاح حدود الرسول وهو بشر مختار . فلا تتلبس بصفات الله الواحد القهار . ولا تغيم حولها الشبهات التى غامت على الرسالات حين برزت فيها الخوارق المادية ، حتى اختلطت فى حس الناس والتبست بالأوهام والخرافات . ونشأت عنها الانحرافات .

وهؤلاء الذين يطلبون الخوارق يغفلون عن تقدير فضل الله عليهم بتنزيل هذا القرآن :

« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ..

.. وإنه للبطر بنعمة الله ورعايته التى تجل عن الشكر والتقدير . أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء

بهذا القرآن ؟ وهو يتنزل عليهم ، يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويكشف لهم عما حولهم ؟ ويشعرهم أن عين الله عليهم ، وأنه معنى بهم حتى ليحدثهم بأمرهم ، ويقص عليهم القصص ويعلمهم . وهم هـذا الخلق الصغير الضئيل التائه فى ملـكوت الله الـكبير . وهم وأرضهم وشمسهم التى تدور عليها أرضهم .. ذرات تائهة فى هذا الفضاء الهائل لا يمسكهن إلا الله . والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم . ثم هم لا يكتفون !

« إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . .

فالذين يؤمنون هم الذين يجدون مس هـذه الرحمة فى نفوسهم ، وهم الذين يتذكرون فضل الله وعظم منته على البشرية بهذا التنزيل ؟ ويستشعرون كرمه وهو يدعوهم إلى حضرته وإلى مائدته وهو العلى الـكبير . وهم الذين ينفعهم هذا القرآن ، لأنه يحيا فى قلوبهم ، ويفتح لهم عن كنوزه ويمنحهم ذخائره ، ويشرق فى أرواحهم بالمعرفة والنور .

فأما الذين لا يشعرون بهذا كله ، فيطلبون آية يصدقون بها هـذا القرآن ! هؤلاء المطموسون الذين لا تتفتح قلوبهم للنور . هؤلاء لا جدوى من المحاولة معهم ؟ وليترك أمر الفصل بينه وبينهم إلى الله !

«قل : كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ، يعلم مافى السماوات والأرض . والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » . .

وشهادة من يعلم مافى السماوات والأرض أعظم شهادة . وهو الذى يعلم أنهم على الباطل :

« والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » . .

الخاسرون على الإطلاق . الخاسرون لـكل شىء . الخاسرون للدنيا والآخرة . الخاسرون لأنفسهم وللهدى والاستقامة والطمأنينة والحق والنور .

إن الإيمان بالله كسب . كسب فى ذاته . والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله . إنه طمأنينة فى القلب واستقامة على الطريق ، وثبات على الأحـداث ، وثقة بالسند ، واطمئنان للحمى ، ويقين بالعاقبة . و إن هذا فى ذاته لهو الـكسب ؟ وهوهو الذى يخسره الـكافرون . و« أولئك هم الخاسرون » . .

***

ثم يمضى فى الحديث عن أولئك المشركين . عن استعجالهم بالعذاب . وجهنم منهم قريب :

« ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون » ..

ولقد كان المشركون يسمعون النذير ، ولا يدركون حكمة الله فى إمهالهم إلى حين ؛ فيستعجلون الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالعذاب على سبيل التحدى . وكثيرا ما يكون إمهال الله استدراجا للظالمين ليزدادوا عتوا وفسادا . أو امتحانا للمؤمنين ليزدادوا إيمانا وثباتا ؛ وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات . أو استبقاء لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيرا من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغى فيثوبوا إلى الهدى . أو استخراجا لذرية صالحة من ظهورهم تعبد الله وتنحاز إلى حزبه ولو كان آباؤهم من الضالين .. أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور .

ولكن المشركين لم يكونوا يدركون شيئا من حكمة الله وتدبيره ، فكانوا يستعجلون بالعذاب على سبيل التحدى .. « ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب » .. وهنا يوعدهم الله بمجىء العذاب الذى يستعجلونه . بمجيئه فى حينه . ولكن حيث لا ينتظرونه ولا يتوقعونه . وحيث يبهتون له ويفاجأون به : « وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » .

ولقد جاءهم هذا العذاب من بعد فى بدر . وصدق الله . ورأوا بأعينهم كيف يحق وعد الله . ولم يأخذهم الله بالهلاك الكامل كأخذ المكذبين قبلهم ؛ كما أنه لم يستجب لهم فى إظهار خارقة مادية كى لا يحق عليهم وعده بهلاك من يكذبون بعد الخارقة المادية . لأنه قدر للكثيرين منهم أن يؤمنوا فيما بعد ، وأن يكونوا من خيرة جند الإسلام ؛ وأخرج من ظهورهم من حملوا الراية جيلا بعد جيل ، إلى أمد طويل . وكان ذلك كله وفق تدبير الله الذى لا يعلمه إلا الله .

وبعد الوعيد بعذاب الدنيا الذى يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، جعل يكرر استنكاره لاستعجالهم بالعذاب ، وجهنم لهم بالمرصاد :

« يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » ..

وعلى طريقة القرآن فى التصوير ، وفى استحضار المستقبل كأنه مشهود ، صور لهم جهنم محيطة بالكافرين. وذلك بالقياس إليهم مستقبل مستور؛ ولكنه بالقياس إلى الواقع المكشوف لعلم الله حاضر مشهود . وتصويره على حقيقته المستورة يوقع فى الحس رهبة ، ويزيد استعجالهم بالعذاب نكارة . فأنى يستعجل من تحيط به جهنم ، وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ؟ !

ويرسم لهم صورتهم فى جهنم هذه المحيطة بهم ؛ وهم يستعجلون بالعذاب :

« يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون » ..

وهو مشهد مفزع فى ذاته ، يصاحبه التقريع المخزى والتأنيب المرير : « ذوقوا ما كنتم تعملون » .. فهذه نهاية الاستعجال بالعذاب ؛ والاستخفاف بالنذير .

***

ويدع الجاحدين المكذبين المستهترين فى مشهد العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ليلتفت إلى المؤمنين ، الذين يفتنهم أولئك المكذبون عن دينهم، ويمنعونهم من عبادة ربهم .. يلتفت إليهم يدعوهم إلى الفرار بدينهم ، والنجاة بعقيدتهم . فى نداء حبيب وفى رعاية سابغة ، وفى أسلوب يمس كل أوتار القلوب :

« ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ، فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » ..

إن خالق هذه القلوب ، الخبير بمداخلها ، العليم بخفاياها ، العارف بما يهجس فيها ، وما يستكن فى حناياها .. إن خالق هذه القلوب ليناديها هذا النداء الحبيب : ياعبادى الذين آمنوا : يناديها هكذا وهو يدعوها إلى الهجرة بدينها ، لتحس منذ اللحظة الأولى بحقيقتها . بنسبتها إلى ربها وإضافتها إلى مولاها : « يا عبادى » ..

هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية : « إن أرضى واسعة » ..

أنتم عبادى . وهذه أرضى . وهى واسعة . فسيحة تسعكم . فما الذى يمسككم فى مقامكم

الضيق ، الذى تفتنون فيه عن دينكم ، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم؟ غادروا هـذا الضيق يا عبادى إلى أرضى الواسعة ، ناجين بدينكم ، أحرارا فى عبادتكم « فإياى فاعبدون ».

إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذى يتحرك فى النفس التى تدعى الهجرة . ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين : بالنداء الحبيب القريب : « يا عبادى » وبالسعة فى الأرض : « إن أرضى واسعة » . ومادامت كلها أرض الله ، فأحب بقعة منها إذن هى التى يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه .

ثم يمضى يتتبع هواجس القلوب وخواطرها . فإذا الخاطر الثانى هو الخوف من خطر الهجرة . خطر الموت الكامن فى محاولة الخروج — وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين فى مكة ، ولا يسمحون لهم بالهجرة عند ما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين — ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة . ومن هنا تجىء اللمسة الثانية :

« كل نفس ذائقة الموت . ثم إلينا ترجعون » ..

فالموت حتم فى كل مكان ، فلا داعى أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه . وإلى الله المرجع والمآب . فهم مهاجرون إليه ، فى أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه فى نهاية المطاف . وهم عباده الذين يؤويهم إليه فى الدنيا والآخرة . فمن ذا يساوره الخوف ، أو يهجس فى ضميره القلق ، بعد هذه اللمسات ؟

ومع هذا فإنه لا يدعهم إلى هذا الإيواء وحده ؛ بل يكشف عما أعده لهم هناك . وإنهم ليفارقون وطنا فلهم فى الأرض عنه سعة . ويفارقون بيوتا فلهم فى الجنة منها عوض . عوض من نوعها وأعظم منها :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها » .

وهنا يهتف لهم بالعمل والصبر والتوكل على الله :

« نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » :.

وهى لمسة التثبيت والتشجيع لهذه القلوب ، فى موقف القلقلة والخوف والحاجة إلى التثبيت والتشجيع .

ثم يهجس فى النفس خاطر القلق على الرزق ، بعد مغادرة الوطن والمال ومجال العمل والنشاط المألوف ، وأسباب الرزق المعلومة . فلا يدع هذا الخاطر دون لمسة تقر لها القلوب :

« وكأى من دابة لاتحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم » ..

لمسة توقظ قلوبهم إلى الواقع المشهود فى حياتهم . فكم من دابة لاتحمل رزقها ولا تجمعه ولا تحمله ولا تهتم به ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، ولا كيف تحتفظ به معها . ومع هذا فإن الله يرزقها ولا يدعها تموت جوعا . وكذلك يرزق الناس . ولو خيل إليهم أنهم يخلقون رزقهم وينشئونه . إنما يهبهم الله وسيلة الرزق وأسبابه . وهذه الهبة فى ذاتها رزق من الله ، لا سبيل لهم إليه إلا بتوفيق الله . فلا مجال للقلق على الرزق عند الهجرة . فهم عباد الله يهاجرون إلى أرض الله يرزقهم الله حيث كانوا . كما يرزق الدابة لاتحمل رزقها ، ولكن الله يرزقها ولا يدعها .

ويختم هذه اللمسات الرقيقة العميقة بوصلهم بالله ، وإشعارهم برعايته وعنايته ، فهو يسمعهم ويعلم حالهم ، ولا يدعهم وحدهم : « وهو السميع العليم » ..

وتنتهى هذه الجولة القصيرة ؛ وقد لمست كل حنية فى تلك القلوب ؛ ولبت كل خاطر هجس فيها فى لحظة الخروج . وقد تركت مكان كل مخافة طمأنينة ، ومكان كل قلق ثقة ، ومكان كل تعب راحة . وقد هدهدت تلك القلوب وغمرتها بشعور القربى والرعاية والأمان فى كنف الله الرحيم المنان .

ألا إنه لا يدرك هواجس القلوب هكذا إلا خالق القلوب . ولا يداوى القلوب هكذا إلا الذى يعلم مافى القلوب .

***

وبعد هذه الجولة مع المؤمنين يرتد السياق إلى التناقض فى موقف المشركين وتصوراتهم. فهم يقرون بخلق الله للسماوات والأرض وتسخيره الشمس والقمر وإنزاله الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها . وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم . وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف .. ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله ، ويؤذون من يعبدونه وحده ، ويفتنونهم عن عقيدتهم التى لاتناقض فيها ولا اضطراب ، وينسون نعمة الله

عليهم فى تأمينهم فى البيت الحرام ، وهم يروعون عباده فى بيته الحرام :

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن : الله . فأنى يؤفكون ؟ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إن الله بكل شىء عليم . ولئن سألتهم: من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن : الله . قل: الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون . وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون . أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » . .

وهذه الآيات ترسم صورة لعقيدة العرب إذ ذاك ؛ وتوحى بأنه كان لها أصل من التوحيد ؛ ثم وقع فيها الانحراف . ولا عجب فى هذا فهم من أبناء إسماعيل بن إبراهيم ــ عليهما السلام ــ وقد كانوا بالفعل يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وكانوا يعتزون بعقيدتهم على هذا الأساس ؛ ولم يكونوا يحفلون كثيرا بالديانة الموسوية أو المسيحية وهما معهم فى الجزيرة العربية ، اعتزازا منهم بأنهم على دين إبراهيم . غير منتبهين إلى ما صارت إليه عقيدتهم من التناقض والانحراف . .

كانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض ، ومسخر الشمس والقمر ، ومنزل الماء من السماء ، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء . . يقرون أن صانع هذا كله هو الله . ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم ، أو يعبدون الجن ، أو يعبدون الملائكة ؛ ويجعلونهم شركاء لله فى العبادة ، وإن لم يجعلوهم شركاء له فى الخلق . . هو تناقض عجيب . تناقض يُعجِّب الله منه فى هذه الآيات : « فأنى يؤفكون ؟ » أى كيف يصرفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب ؟ « بل أكثرهم لا يعقلون » فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط!

ويبن السؤال عن خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر ؛ والسؤال عن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها . يقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له فيربط سنة الرزق بخلق السماوات والأرض وسائر آثار القدرة والخلق ، ويكل هذا إلى علم الله بكل شىء : « إن الله بكل شىء عليم » . .

والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك ، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات . وبسط الرزق وتضييقه بيد الله ؛ وفق الأوضاع والظواهر العامة المذكورة فى الآيات . فموارد الرزق من ماء ينزل ، وأنهار تجرى ، وزروع تنبت ، وحيوان يتكاثر . ومن معادن وفلزات فى جوف الأرض ، وصيد فى البر والبحر . . إلى نهاية موارد الرزق العامة ، تتبع كلها نواميس السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر تبعية مباشرة ظاهرة . ولو تغيرت تلك النواميس عما هى عليه أدنى تغيير لظهر أثر هذا فى الحياة كلها على سطح الأرض ؛ وفى المخبوء فيها من الثروات الطبيعية الأخرى سواء بسواء . فحتى هذا المخبوء فى جوف الأرض ، إنما يتم تكوينه وتخزينه واختلافه من مكان إلى مكان وفق أسباب من طبيعة الأرض ومن مجموعة تأثراتها بالشمس والقمر[١] !

والقرآن يجعل الكون الكبير ومشاهده العظيمة هى برهانه وحجته ، وهى مجال النظر والتدبر للحق الذى جاء به . ويقف القلب أمام هذا الكون وقفة المتفكر المتدبر ، اليقظ لعجائبه ، الشاعر بيد الصانع وقدرته ، المدرك لنواميسه الهائلة ، بلفتة هادئة يسيرة ، لا تحتاج إلى علم شاق عسير ، إنما تحتاج إلى حس يقظ وقلب بصير . وكلما جلا آية من آيات الله فى الكون وقف أمامها يسبح بحمد الله ويربط القلوب بالله : « قل الحمد لله . بل أكثرهم لا يعقلون ! » .

وبمناسبة الحديث عن الحياة فى الأرض وعن الرزق والبسط فيه والقبض ، يضع أمامه الميزان الدقيق للقيم كلها . فإذا الحياة الدنيا بأرزاقها ومتاعها لهو ولعب حين تقاس بالحياة فى الدار الآخرة :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، لو كانوا يعلمون » . .

فهذه الحياة الدنيا فى عمومها ليست إلا لهوا ولعبا حين لا ينظر فيها إلى الآخرة . حين تكون هى الغاية العليا للناس . حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة . فأما الحياة الآخرة

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » فى سورة الفرقان الجزء التاسع عشر من الظلال .

فهى الحياة الفائضة بالحيوية . هى « الحيوان » لشدة مافيها من الحيوية والامتلاء .

والقرآن لا يعنى بهذا أن يحض على الزهد فى متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيدا . إن هــذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه . إنما يعنى مراعاة الآخرة فى هــذا المتاع ، والوقوف فيه عند حــدود الله . كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له ، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليــه ! والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح . فهذه قيمة الدنيا وهــذه قيمة الآخرة كما ينبغى أن يستشعرها المؤمن ؛ ثم يسير فى متاع الحياة الدنيا على ضوئها ، مالــكا لحريته معتدلا فى نظرته : الدنيا لهو ولعب ، والآخرة حياة مليئة بالحياة .

وبعد هذه الوقفة للوزن والتقويم يمضى فى عرض ماهم فيه من متناقضات :

« فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصــين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » . .

وهذا كذلك من التناقض والاضطراب . فهم إذا ركبوا فى الفلك ؛ وأصبحوا على وجه اليم كاللعبة تتقاذفها الأمواج ؛ لم يذكروا إلا الله . ولم يشعروا إلا بقوة واحدة يلجأون إليها هى قوة الله . ووحــدوه فى مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء ؛ وأطاعوا فطرتهم التى تحس وحدانية الله : « فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » ونسوا وحى الفطرة المستقيم ؛ ونسوا دعاءهم لله وحده مخلصين له الدين ؛ وانحرفوا إلى الشرك بعد الإقرار والتسليم !

وغاية هــذا الانحراف أن ينتهى بهم إلى الــكفر بما آتاهم الله من النعمة ، وما آتاهم من الفطرة ، وما آتاهم من البينة ؛ وأن يتمتعوا متاع الحياة الدنيا المحدود إلى الأجل المقدور . ثم يكون بعد ذلك ما يكون ، وهو الشر والسوء .

« ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » . .

وهو التهديد من طرف خفى بسوء ماسوف يعلمون !

ثم يذكرهم بنعمة الله عليهم فى إعطائهم هذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ؛ فلا يذكرون نعمة الله ولا يشكرونها بتوحيده وعبادته . بل إنهم ليروعون المؤمنين فيه :

« أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ » . .

ولقد كان أهل الحرم المكى يعيشون فى أمن ، يعظمهم الناس من أجل بيت الله ، ومن حولهم القبائل تتناحر ، ويفزع بعضهم بعضا ، فلا يجدون الأمان إلا فى ظل البيت الذى آمنهم الله به وفيه . فكان عجيبا أن يجعلوا من بيت الله مسرحا للأصنام ، ولعبادة غير الله أيا كان !
« أفبالباطل يؤمنون ؟ وبنعمة الله يكفرون ؟ » !

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ؟ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ » . .

وهم قد افتروا على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه . وهم كذبوا بالحق لما جاءهم وجحدوا به . أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟ بلى وعن يقين !

* * *

ويختم السورة بصورة الفريق الآخر . الذين جاهدوا فى الله ليصلوا إليه ؛ ويتصلوا به . الذين احتملوا فى الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا . الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس . الذين حملوا أعباءهم وساروا فى ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب . . أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم ، ولن ينسى جهادهم . إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم . وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم . وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم . وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء :
« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . وإن الله لمع المحسنين » . .

سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ٦٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« أَلَمَ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الأَرْضَ ، وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى ، أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ .

« اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

« فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ، وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ . هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ . فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ؟ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ . ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » .

نزلت الآيات الأولى من هـذه السورة بمناسبة معينة . ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك فى إبان احترام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام فى مكة قبل الهجرة والمشركين . . ولما كان الروم فى ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة فى الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هـذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم فى بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين .

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد ، ولا فى حدود ذلك الحادث . إنما كانت هـذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت . وليصلهم بالكون كله ، وليربط بين سنة الله فى نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذى قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما . وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم فى مشاهد الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى أحوال البشر ، وفى عجائب الفطر . . فإذا هم فى ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها ، وتوسع آمادها وأهدافها ، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله : ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه .

ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات فى هذا الكون الكبير . ويشعرون بضخامة النواميس التى تحكم هـذا الكون ، وتحكم فطرة البشر ؛ ودقة السنن التى تصرف حياة الناس وأحداث الحياة ، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ؛ وعدالة الموازين التى تقدر بها أعمال الخلق ، ويقوّم بها نشاطهم فى هذه الأرض ، ويلقون على أساسها الجزاء فى الدنيا والآخرة .

وفى ظل ذلك التصور المرتفع الواسع الشامل تتكشف عالمية هـذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها — حتى وهى ناشئة فى مكة محصورة بين شعابها وجبالها —

ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحـدها إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هـذا الـكون ونواميسه الـكبرى ، وفطرة النفس البشرية وأطوارها ، وماضى هـذه البشرية ومستقبلها . لا على هـذه الأرض وحدها ، ولـكن كذلك فى العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ؛ ويتـكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة ؛ ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار ، وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر . ويدرك موقفه هو وموقف أمته فى ذلك الخضم الهائل ؛ ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته فى حساب الناس وحساب الله ، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتـكاليفه فى ثقة وطمأنينة واهتمام .

***

ويمضى سياق السورة فى عرض تلك الارتباطات ، وتحقيق دلالاتها فى نظام الـكون ، وتثبيت مدلولاتها فى القلوب . . يمضى سياق السورة فى شوطين مترابطين :

فى الشوط الأول يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوم عليـه السماوات والأرض وما بينهما ، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة . ويوجه قلوبهم إلى سنة الله فيمن مضى قبلهم من القرون . ويقيس عليهـا قضية البعث والإعادة . ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد القيامة وما يجرى فيه للمؤمنين والـكافرين . ثم يعود من هذه الجولة إلى مشاهد الـكون ، وآيات الله المبثوثة فى ثناياه ؛ ودلالة تلك المشاهد وإيحائهـا للقلوب . ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملـكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فـكرة الشرك ، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم . . وينهى هـذا الشوط بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح . طريق الفطرة التى فطر الناس عليها ؛ والتى لا تتبـدل ولا تدور مع الهوى ؛ ولا يتفرق متبعوها فرقا وشيعا ، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى .

وفى الشوط الثانى يكشف عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليـه الحياة . مالم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء ، ويصور حالهم فى الرحمة والضر ، وعنـد بسط الرزق وقبضه . ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته . ويعود

إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هـذه الزاوية ؛ فإذا هم لا يرزقون ولا يميتون ولا يحيون . ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم ؛ ويوجههم إلى السير فى الأرض ، والنظر فى عواقب المشركين من قبل . ومن ثم يوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاستقامة على دين الفطرة ، من قبل أن يأتى اليوم الذى يجزى فيه كل بما كسبت يداه . ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون كما عاد بهم فى الشوط الأول . ويعقب عليها بأن الهدى هدى الله ؛ وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك إلا البلاغ ، فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم . ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها ، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة ، ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها . ثم ينهى هذا الشوط ويختم معه السورة بتوجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصبر على دعوته ، وما يلقاه من الناس فيها ؛ والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد آت ؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون .

***

وجو السورة وسياقها معاً يتعاونان فى تصوير موضوعها الرئيسى . وهو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس ، وأحداث الحياة ، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها ، وسنن الكون ونواميس الوجود . وفى ظلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل نأمة ، وكل حادث وكل حالة ، وكل نشأة وكل عاقبة ، وكل نصر وكل هزيمة . . كلها مرتبطة برباط وثيق ، محكومة بقانون دقيق . وأن مرد الأمر فيها كله لله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . وهـذه هى الحقيقة الأولى التى يؤكدها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة الموجهة فى هـذه العقيدة . الحقيقة التى تنشأ عنهـا جميع التصورات والمشاعر والقيم والتقديرات ؛ والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير . .

***

والآن نأخذ فى عرض السورة بالتفصيل :

« ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبـل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ،

وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » . .

بدأت السورة بالأحرف المقطعة : « ألف . لام . ميم » التى اخترنا فى تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن — ومنه هذه السورة — مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التى يعرفها العرب ؛ وهو مع هذا معجز لهم ، لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم .

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم فى بضع سنين . وقد روى ابن جرير — بإسناده — عن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين » . قالوا : ياأبا بكر . إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك(١) ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ؛ فذكر ذلك للنبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت فى هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير . وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ماوراءه فى السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان . ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال ، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين

(١) أى نراهنك . وجاء فى خبر آخر أن ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر .

فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ؛ وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون فى أى مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست فى عزلة عما يجرى فى أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثر فى قضية الكفر والإيمان .

وهذه الحقيقة البارزة هى التى يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ؛ ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم . منذ حوالى أربعة عشر قرنا . ومن ثم ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية فى حقيقتها هى قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة فى صميمها هى المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم فى جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة ، وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التى تتستر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوعت العلل والأسباب .

والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة فى وعد الله ، كما تبدو فى قولة أبى بكر — رضى الله عنه — فى غير تلعثم ولا تردد ، والمشركون يعجبونه من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول : صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، فى الأجل الذى حدده : « فى بضع سنين » . . وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هى التى ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتا فى وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله وحق وعد الله . وهى عدة كل ذى عقيدة فى الجهاد الشاق الطويل .

والإيحاء الثالث هو فى تلك الجملة المعترضة فى مساق الخبر ، من قول الله سبحانه : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . . والمسارعة برد الأمر كله لله . فى هذا الحادث وفى سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر مايقع فى هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث والأحوال إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التى ليس لأحد عليها من سلطان ؛ ولا يدرى أحد ما وراءها من الحكمة ؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله . وإذن

فالتسليم والاستسلام هو أقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التى يجريها الله وفق قدر مرسوم .

* * *

« ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » ..

« لله الأمر من قبل ومن بعد » ..

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » ..

ولقد صدق وعد الله ، وفرح المؤمنون بنصر الله .

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » ..

فالأمر له من قبل ومن وبعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التى تريد النتيجة هى ذاتها التى تيسر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التى تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف ؛ وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات ، وفق تلك السنن التى اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية فى هذا المجال . فهى ترد الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفى البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التى من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لاتتحقق فليس داخلا فى التكليف ، لأن مرد ذلك فى النهاية إلى تدبير الله . ولقد ترك الأعرابى ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ودخل يصلى قائلا : « توكلت على الله » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « اعقلها وتوكل » [1] . فالتوكل فى العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله .

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » ..

(١) أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك .

فهذا النصر محفوف بظلال القدرة القادرة التى تنشئه وتظهره فى عالم الواقع ؛ وبظلال الرحمة التى تحقق به مصالح الناس ؛ وتجعل منه رحمة للمنصورين والمغلوبين سواء . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وصلاح الأرض رحمة للمنتصرين والمهزومين فى نهاية المطاف .

« وعد الله . لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ..

ذلك النصر وعد من الله ، فلا بد من تحققه فى واقع الحياة : « لا يخلف الله وعده » فوعده صادر عن إرادته الطليقة ، وعن حكمته العميقة . وهو قادر على تحقيقه ، لا راد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ، ولا يكون فى الكون إلا ما يشاء .

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذى لا يتغير « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولو بدا فى الظاهر أنهم علماء ، وأنهم يعرفون الكثير . ذلك أن علمهم سطحى ، يتعلق بظواهر الحياة ، ولا يتعمق سننها الثابتة ، وقوانينها الأصيلة ؛ ولا يدرك نواميسها الكبرى ، وارتباطاتها الوثيقة : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » .. ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ؛ ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه .

وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا ، يستغرق جهودهم بعضه ، ولا يستقصونه فى حياتهم المحدودة . والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل ، تحكمه نواميس وسنن مستكنة فى كيان هذا الوجود وتركيبه .

والذى لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ؛ ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التى تصرفه ، يظل ينظر وكأنه لا يرى ؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ، ولكنه لا يدرك حكمته ، ولا يعيش بها ومعها . وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذى يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود ؛ وهو الذى يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود . والمؤمنون هذا الإيمان قلة فى مجموع الناس . ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية .

« وهم عن الآخرة هم غافلون » : . فالآخرة حلقة فى سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ، ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون

عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة فى خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقا ولا تحيد .

والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ؛ وتؤرجح فى أكفهم ميزان القيم ؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورا صحيحا ؛ ويظل علمهم بها ظاهرا سطحيا ناقصا ، لأن حساب الآخرة فى ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع فى هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هى إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة فى الكون . ونصيبه فى هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم فى الوجود . والأحداث والأحوال التى تتم فى هذه الأرض إن هى إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغى أن يبنى الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

ومن ثم لا يلتقى إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . لا يلتقى هذا وذاك فى تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتفقان فى حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال . . هذا يرى ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضى والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذى يشمل الأحياء وغير الأحياء . . وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذى ينقل الإسلام البشرية إليه ؛ ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان . الخليفة فى الأرض. المستخلف بحكم ما فى كيانه من روح الله .

* * *

ولارتباط تحقق وعد الله بالنصر بالحق الأكبر الذى يقوم عليه هذا الوجود ، وارتباط أمر الآخرة كذلك بهذا الحق استطرد يجول بهم جولة أخرى فى ضمير هذا الكون . فى السماوات والأرض وما بينهما ؛ ويردهم إلى أنفسهم ينظرون فى أعماقها ويتدبرون ، علهم يدركون ذلك الحق الكبير ، الذى يغفلون عنه حين يغفلون عن الآخرة ؛ ويغفلون عن الدعوة التى تقودهم إلى رؤية ذلك الحق وتدبره :

«أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى . وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون» .

فطبيعة تكوينهم هم أنفسهم ، وطبيعة هذا الكون كله من حولهم توحى بأن هذا الوجود قائم على الحق ، ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ، ولا تتخلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق المصادفة العمياء ، ولا وفق الهوى المتقلب ، إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا . وأن من مقتضيات هذا الحق الذى يقوم عليه الوجود أن تكون هناك آخرة ، يتم فيها الجزاء على العمل ، ويلقى الخير والشر عاقبتهما كاملة . إنما كل شىء إلى أجله المرسوم . وفق الحكمة المدبرة ؛ وكل أمر يجىء فى موعده لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . وإذا لم يعلم البشر متى تكون الساعة ، فإن هذا ليس معناه أنها لا تكون ! ولكن تأجيلها يغرى الذين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ويخدعهم : « وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » . .

* * *

ومن هذه الجولة فى ضمير السماوات والأرض وما بينهما . وهى جولة بعيدة الآماد والآفاق فى هيكل الكون الهائل ، وفى محتوياته المنوعة ، الشاملة للأحياء والأشياء ، والأفلاك والأجرام ، والنجوم والكواكب ، والجليل والصغير ، والخافى والظاهر ، والمعلوم والمجهول . . . من هذه الجولة البعيدة فى ضمير الكون ينقلهم إلى جولة أخرى فى ضمير الزمان ، وأبعاد التاريخ ، يرون فيها طرفا من سنة الله الجارية ، التى لا تتخلف مرة ولا تحيد :

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ؛ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ؛ وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ، أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » .

وهى دعوة إلى التأمل فى مصائر الغابرين ؛ وهم ناس من الناس ، وخلق من خلق الله ، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية . فسنة الله هى سنة الله

فى الجميع . وسنة الله حق ثابت يقوم عليه هـذا الوجود ، بلا محاباة لجيل من النـاس ، ولا هوى يتقلب فتتقلب معه العواقب . حاشا لله رب العالمين !

وهى دعوة إلى إدراك حقيقة هـذه الحياة وروابطها على مدار الزمان ، وحقيقة هـذه الإنسانية الموحـدة للنشأ والمصير على مدار القرون . كى لا ينعزل جيل من النـاس بنفسه وحيـاته ، وقيمه وتصوراته ، ويغفل عن الصلة الوثيقـة بين أجيال البشر جميعا ، وعن وحدة السنة التى تحكم هذه الأجيال جميعا ؛ ووحدة القيم الثابتة فى حياة الأجيال جميعا .

فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين فى مكة « كانوا أشد منهم قوة » . . « وأثاروا الأرض » . . حرثوها وشقوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها « وعمروها أكثر مما عمروها » . . فقـد كانوا أكثر حضارة من العرب ، وأقدر منهم على عمارة الأرض . . ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : « وجاءتهم رسلهم بالبينات » . . فلم تتفتح بصائرهم لهذه البينات ؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذى يكشف الطريق . فمضت فيهم سنة الله فى المـكذبين ؛ ولم تنفعهم قوتهم ؛ ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ؛ ولقوا جزاءهم العـادل الذى يستحقونه : « فـا كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى » . . كانت السوءى هى العاقبة التى لقيها المسيئون وكانت جزاء وفاقا على « أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » . .

والقرآن الـكريم يدعو المـكذبين المستهزئين بآيات الله أن يسيروا فى الأرض فلا ينعزلوا فى مكانهم كالقوقعة ؛ وأن يتدبروا عاقبـة أولئك المـكذبين المستهزئين ويتوقعوا مثلها ؛ وأن يدركوا أن سنة الله واحـدة وأنها لا تحابى أحـدا ؛ وأن يوسعوا آفاق تفـكيرهم فيدركوا وحدة البشرية ، ووحـدة الدعوة ، ووحدة العاقبـة فى أجيال البشرية جميعا . وهـذا هو التصور الذى يحرص الإسلام على أن يطبع به قلب المؤمن وعقله ، ويكرر القرآن الإيقاع حوله كثيرا .

* * *

ومن هاتين الجولتين فى أغوار الـكون وأغوار التاريخ يردهم إلى الحقيقة التى يغفل

عنها الغافلون . حقيقة البعث والمآب . وهى طرف من الحق الأكبر الذى يقوم عليه الوجود :

« الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » ..

وهى حقيقة بسيطة واضحة . والترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك. فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان فى سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة فى النهاية إلى رب العالمين ، الذى أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم فى النهاية على ما يعملون .

وعند ما يصل السياق إلى البعث والمآب يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويرسم مصائر المؤمنين والمكذبين حين يرجعون ؛ ويكشف عن عبث اتخاذ الشركاء وسخف عقيدة المشركين :

« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون » . .

فهاهى ذى الساعة التى يغفل عنها الغافلون ، ويكذب بها المكذبون . هاهى ذى تجىء ، أو هاهى ذى تقوم ! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم فى نجاة ، ولا رجاء لهم فى خلاص . ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم فى الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم هاهم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم فى الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين .

ثم هاهو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين :

« فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون » . . ويتلقون فيها مايفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير .

« وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون » . . . وتلك نهاية المطاف . وعاقبة المحسنين والمسيئين .

***

ومن هذه الجولة فى مشاهد القيامة فى العالم الآخر يعود بهم إلى هذا العالم ، وإلى مشاهد الكون والحياة . وإلى عجائب الخلق وأسرار النفس ، وإلى خوارق الأحداث ومعجزات التكوين . ويبدأ هذه الجولة بتسبيح الله حين تقلب الليل والنهار وحمد الله فى الكون العريض بالعشى والأظهار :

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ـ وهو أهون عليه ـ وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

إنها جولة ضخمة هائلة ، لطيفة عميقة ، بعيدة الآماد والأغوار . جولة تطوّف بالقلب البشرى فى الأمسيات والأصباح ، والسماوات والأرض ، والعشى والأظهار ، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة فى النشوء والدثور . وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى ، وإلى ما ركب فى فطرته من ميول ونوازع ، وقوى وطاقات ، ومايقوم بين زوجيه من علائق وروابط ، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات . وتوجهه إلى آيات الله فى خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقا لاختلاف البيئة والمكان . وإلى تدبر مايعترى الكائن البشرى من نوم ويقظة وراحة وكد . وإلى مايعترى الكون من ظواهر البرق والمطر ، وما تثيره فى نفوس البشر من خوف وطمع ، وفى بنية الأرض من حياة وازدهار . وتمضى هذه الجولة العجيبة فى النهاية بالقلب البشرى إلى قيام السماوات والأرض فى هذا كله بأمر الله ؛ وإلى توجه من فى السماوات والأرض كلهم لله . وتنتهى بالحقيقة التى تتجلى

حينئذ واضحة هينة يسيرة : إن الله هو يبدئ ويعيد. والإعادة أهون عليه . وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم :

* * *

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . .

إن ذلك التسبيح وهذا الحمد يجيئان تعقيبا على مشهد القيامة فى الفقرة السابقة ، وفوز المؤمنين بروضة فيها يحبرون ، وانتهاء الكافرين المكذبين إلى شهود العذاب . ومقدمة لهذه الجولة فى ملكوت السماوات والأرض ، وأغوار النفس وعجائب الخلق . فيتسقان مع التعقيب على المشهد وعلى التقديم للجولة كل الاتساق .

والنص يربط التسبيح والحمد بالأوقات : الإمساء والإصباح والعشى والأظهار ؛ كما يربطهما بآفاق السماوات والأرض . فيتقصى بهما الزمان والمكان ؛ ويربط القلب البشرى بالله فى كل بقعة وفى كل أوان ؛ ويشعر بتلك الرابطة فى الخالق مع هيكل الكون ودورة الأفلاك وظواهر الليل والنهار والعشى والأظهار . . ومن ثم يظل هذا القلب مفتوحا يقظا حساسا ، وكل ما حوله من مشاهد وظواهر ، وكل ما يختلف عليه من آونة وأحوال ، يذكره بتسبيح الله وحمده ؛ ويصله بخالقه وخالق المشاهد والظواهر والآونة والأحوال .

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها . . وكذلك تخرجون » . .

« يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها » . . تلك العملية الدائبة التى لا تكف ولا تنى لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان ، على سطح الأرض ، وفى أجواز الفضاء ، وفى أعماق البحار . . ففى كل لحظة يتم هذا التحول . بل هذه المعجزة الخارقة التى لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار . فى كل لحظة يخرج حى من ميت ويخرج ميت من حى . وفى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة ؛ وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام . ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات ؛ ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للإخصاب . وفى كل لحظة تدب الحياة

فى جنين . إنسان أو حيوان أو طائر . والجثة التى ترم فى الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات ، فالحيوان والإنسان ! ومثل هذا يتم فى أغوار البحار وفى أجواز الفضاء على السواء .

إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعى والقلب البصير ، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله .

« وكذلك تخرجون » . . فالأمر عادى واقعى لاغرابة فيه وليس بدعا مما يشهده الكون فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان !

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » . .

والتراب ميت ساكن ؛ ومنه نشأ الإنسان . وفى موضع آخر فى القرآن جاء : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين [1] » فالطين هو الأصل البعيد للإنسان . ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين . للمقابلة فى المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحى المتحرك . وذلك بعدقوله : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » تنسيقا للعرض على طريقة القرآن .

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيحاء كذلك بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التى يعيشون عليها ؛ والتى يلتقون بها فى أصل تكوينهم ، وفى النواميس التى تحكمها وتحكمهم فى نطاق الوجود الكبير .

والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر . . نقلة تثير التأمل فى صنع الله ؛ وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله ؛ وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم .

ومن مجال الخلقة الأولى لنوع البشر ينتقل إلى مجال الحياة المشتركة بين جنسى البشر :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين ؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة .

---

(١) المؤمنون ، آية : ١٢ يراجع تفسيرها فى الجزء الثامن عشر ص ١٤ ــ ١٥ .

ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التى خلقت لهم من أنفسهم أزواجا ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت فى تلك الصلة سكنا للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة والمعاش ، وأنسا للأرواح والضمائر ، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء .

والتعبير القرآنى اللطيف الرفيق يصورهذه العلاقة تصويرا موحيا ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس : « لتسكنوا إليها » . . « وجعل بينكم مودة ورحمة » . .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . . فيدركون حكمة الخالق فى خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر . ملبيا لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية . بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ؛ ويجدان فى اجتماعهما السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسى والعصبى والعضوى ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما فى الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما فى النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل فى جيل جديد . .

« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن فى ذلك لآيات للعالمين » . .

وآية خلق السماوات والأرض كثيرا مايشار إليها فى القرآن ، وكثيرا ما نمر عليها سراعا دون أن نتوقف أمامها طويلا . . ولكنها جديرة بطول الوقوف والتدبر العميق .

إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق ؛ الذى لانعرف عنه إلا أقل من القليل . هذا الحشد الذى لايحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات . تلك التى لاتزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لاوزن لها ولاظل ! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات ؛ وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب ؛ وتجعل كل شىء فى أمرها بمقدار .

ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام ، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها ؛ والنواميس الكبرى التى تحفظها وتحكمها وتصرفها . . فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان ؛ وماعرف عنه إلا أقل من القليل . ودراسة هذا الكوكب الصغير الضئيل الذى نعيش على سطحه لم يتم منها حتى اليوم إلا القليل !

هذه لمحة خاطفة عن آية خلق السماوات والأرض التى نمر عليها سراعا . بينما نتحدث

طويلا . وطويلا جدا . عن جهاز صغير يركبه علماء الإنسان ؛ ويحتفظون فيه بالتناسق بين أجزائه المختلفة لتعمل كلها فى حركة منتظمة دون تصادم ولاخلل فترة من الزمان ! ثم يستطيع بعض التائهين الضالين المنحرفين أن يزعم أن هذا الكون الهائل النظم الدقيق العجيب وجد واستمر بدون خالق مدبر . ويجد من يستطيع أن يسمع لهذا الهراء ! من العلماء !

ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان . . بين بنى الإنسان . ولابد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان . مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان .

وعلماء هذا الزمان يرون اختلاف اللغات والألوان ؛ ثم يمرون عليه دون أن يروا فيه يد الله ، وآياته فى خلق السماوات والأرض . وقد يدرسون هذه الظاهرة دراسة موضوعية . ولكنهم لايقفون ليمجدوا الخالق المدبر للظواهر والبواطن . ذلك أن أكثر الناس لايعلمون . «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» . وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لايراها إلا الذين يعلمون : «إن فى ذلك لآيات للعالمين» . .

«ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» . .

وهذه آية كذلك تجمع بين ظواهر كونية وما يتعلق بها من أحوال البشرية ، وتربط بين هذه وتلك . وتنسق بينهما فى صلب هذا الوجود الكبير . . تجمع بين ظاهرتى الليل والنهار ونوم البشر ونشاطهم ابتغاء رزق الله ، الذى يتفضل به على العباد ، بعد أن يبذلوا نشاطهم فى الكد والابتغاء ، وقد خلقهم الله متناسقين مع الكون الذى يعيشون فيه ؛ وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار ؛ وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام . مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة فى هذا ودرجات . وكلها تجد فى نظام الكون العام مايلبى طبيعتها ويسمح لها بالحياة .

«إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» . . والنوم والسعى سكون وحركة يدركان بالسمع . ومن ثم يتناسق هذا التعقيب فى الآية القرآنية مع الآية الكونية التى تتحدث عنها على طريقة القرآن الكريم .

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكونى ؛ ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء ، أو بين سحابة وجسم أرضى كقمة جبل مثلا . ينشأ عنها تفريغ فى الهواء يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق . وفى الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم . وأياً ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارىء وقدره تقديرا .

والقرآن الكريم حسب طبيعته لايفصل كثيرا فى ماهية الظواهر الكونية وعللها ؛ إنما يتخذ منها أداة لوصل القلب البشرى بالوجود وخالق الوجود . ومن ثم يقرر هنا أنها آية من آيات الله أن يريهم البرق « خوفا وطمعا » . . وهما الشعوران الفطريان اللذان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة . شعور الخوف من الصواعق التى تحرق الناس والأشياء أحيانا عند مايبرق البرق . أو الخوف الغامض من رؤية البرق وما يوقعه فى الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل . وشعور الطمع فى الخير من وراء المطر الذى يصاحب البرق فى معظم الأحوال ؛ والذى عقب بذكره فى الآية بعد ذكر البرق : « وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها » . .

والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حىّ ، يحيا ويموت . وإنها لكذلك فى حقيقتها التى يصورها القرآن الكريم . فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة ، مطيعة لربها خاضعة خاشعة ، ملبية لأمره مسبحة عابدة . والإنسان الذى يدب على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله هذه ، يسير معها فى موكب واحد متجه إلى الله رب العالمين .

ذلك كله بالإضافة إلى أن الماء حين يصيب الأرض ، يبعث فيها الخصب ، فتنبت الزرع الحى النامى ؛ وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة فى هذا النبات . ومن ثم فى الحيوان والإنسان . والماء رسول الحياة حيث كان تكون الحياة .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . فهنا للعقل مجال للتدبر والتفكير .

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون »

وقيام السماوات والأرض منتظمة سليمة مقدرة الحركات لايكون إلا بقدرة من الله وتدبير. وما من مخلوق يملك أن يدعى أنه هو أو سواه يفعل هذا . وما من عاقل يملك أن يقول : إن هذا كله يقع بدون تدبير . وإذن فهى آية من آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ملبية لهذا الأمر ، طائعة له ، دون انحراف ولاتلكؤ ولا اضطراب .

« ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » .

ومن يرى هذا التقدير فى نظام الكون ، وهذه السلطة على مقدراته ، لايشك فى تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم ، بالخروج من القبور !

ثم يأتى الإيقاع الأخير ختاما لهذا التقرير ؛ فإذا كل من فى السماوات والأرض من خلائق قانتون لله طائعون .

« وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون » . .

ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لاقانتين لله ولا عابدين . ولكن هذا التقرير إنما يعنى خضوع كل من فى السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التى تصرفهم وفق السنة المرسومة التى لاتتخلف ولاتحيد . فهم محكومون بهذه السنة ولوكانوا عصاة كافرين . إنما تعصى عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالناموس مأخوذون بالسنة ، يتصرف فيهم خالقهم وفق مايريد تصرفه بباقى العبيد وهم لايملكون إلا الخضوع والقنوت .

ثم يختم تلك الجولة الضخمة الهائلة اللطيفة العميقة بتقرير قضية البعث والقيامة التى يغفل عنها الغافلون :

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده — وهو أهون عليه — وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » . .

وقد سبق فى السورة تقرير البدء والإعادة ، وهو يعاد هنا بعد تلك الجولة العريضة ويضاف إليه جديد : « وهو أهون عليه » . . وليس شىء أهون على الله ولاأصعب . « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن . فيكون » ولكنه إنما يخاطب الناس بحسب إدراكهم، ففى تقدير الناس أن بدء الخلق أصعب من إعادته ، فما بالهم يرون الإعادة عسيرة على الله . وهى فى طبيعتها أهون وأيسر ؟ !

« وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض » . . فهو سبحانه ينفرد فى السماوات والأرض بصفاته لايشاركه فيها أحد ، وليس كمثله شىء ، إنما هو الفرد الصمد .

« وهو العزيز الحكيم » . . العزيز القاهر الذى يفعل مايريد . الحكيم الذى يدبر الخلق بإحكام وتقدير .

***

وعند ماتنتهى تلك الجولة التى طوف فيها القلب البشرى بتلك الآفاق والآماد ، والأعماق والأغوار ، والظواهر والأحوال ، يواجهه سياق السورة بإيقاع جديد :

« ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » . .

ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه : جنا أو ملائكة أو أصناما وأشجارا . وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم فى شىء مما تحت أيديهم من مال . ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم فى شىء من الاعتبار . فيبدو أمرهم عجبا . يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده . ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء فى مالهم . ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله . وهو تناقض عجيب فى التصور والتقدير .

وهو يفصل لهم هذا المثل خطوة خطوة : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » ليس بعيدا عنكم ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره . . « هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ؟ » . . وهم لا يرضون أن يشاركهم ماملكت أيمانهم فى شىء من الرزق فضلا على أن يساووهم فيه « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » . . أى تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار ، وتخشون أن يجوروا عليكم ، وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم ، لأنهم أكفاء لكم وأنداد ؟ هل يقع شىء من هذا فى محيطكم القريب وشأنكم الخاص ؟ وإذا لم يكن شىء من هذا يقع فكيف ترضونه فى حق الله وله المثل الأعلى ؟

وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه ، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » . .

وعند هذا الحد من عرض تناقضهم فى دعوى الشرك المتهافتة ، يكشف عن العلة الأصلية فى هذا التناقض المريب : إنه الهوى الذى لا يستند على عقل أو تفكير :

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم . فمن يهدى من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين » . .

والهوى لاضابط له ولا مقياس . إنما هو شهوة النفس المتقلبة ونزوتها المضطربة ، ورغباتها ومخاوفها . وآمالها ومطامعها التى لاتستند إلى حق ولاتقف عنـد حد ولا تزن بميزان . وهو الضلال الذى لايرجى معه هـدى ، والشرود الذى لاترجى معه أوبة : « فمن يهدى من أضل الله ؟ » نتيجة لاتباعه هواه ؟ « ومالهم من ناصرين » يمنعونهم من سوء المصير .

***

وعند هـذا الحد يفرغ من أمر هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم المتقلبة المضطربة ؛ ويتجه بالخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليستقيم على دين الله الثابت المستند على فطرة الله التى فطر الناس عليها ؛ وهو عقيدة واحدة ثابتة لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعا وأحزابا مع الأهواء والنزوات !

« فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولـكن أكثر الناس لايعلمون . منيبين إليه واتقوه ولاتـكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » . .

هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجىء فى موعده ، وفى موضعه ، بعد تلك الجولات فى ضمـير الـكون ومشاهده ، وفى أغوار النفس وفطرتها . . يجىء فى أوانه وقد تهيأت القلوب المستقيمة الفطرة لاستقباله ؛ كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عدة لهـا وكل سلاح . . وهذا هو السلطان القوى الذى يصدع به القرآن . السلطان الذى لاتقف له القلوب ولاتملك رده النفوس .

« فأقم وجهك للدين حنيفا » . . واتجه إليه مستقيما . فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لا تستند على حق ، ولاتستمد من علم ، إنمـا تتبع الشهوات والنزوات بغير ضابط ولا دليل . . أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ماعداه ، مستقيما على نهيه دون سواه :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » . . وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ؛ وكلاهما من صنع الله ؛ وكلاهما موافق لناموس الوجود ؛ وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه . والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين ثابت : « لاتبديل لخلق الله » . فإذا انحرفت النفوس

عن الفطرة لم يردها إليها إلاهذا الدين المتناسق مع الفطرة . فطرة البشر وفطرة الوجود .

« ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . . فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم .

والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم ، ولو أنه موجه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلا أن المقصود به جميع المؤمنين . لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلا معنى إقامة الوجه للدين :

« منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . كل حزب بما لديهم فرحون » . .

فهي الإنابة إلى الله والعودة في كل أمر إليه . وهي التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية ؛ والشعور به عند كل حركة وكل سكنة . وهي إقامة الصلاة للعبادة الخالصة لله . وهي التوحيد الخالص الذي يميز المؤمنين من المشركين . .

ويصف المشركين بأنهم « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » . . والشرك ألوان وأنماط كثيرة . منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء . ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين . ومنهم من يشركون الكهان والأحبار . ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار . ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم . ومنهم من يشركون النار . ومنهم من يشركون الليل والنهار . ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع . ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله . . و « كل حزب بما لديهم فرحون » بينما الدين القيم واحد لايتبدل ولايتفرق ، ولايقود أهله إلا إلى الله الواحد ، الذي تقوم السماوات والأرض بأمره ، وله من في السماوات والأرض كل له قانتون .

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا

أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ .

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؛ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

« اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ .

« فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي ٱلْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ .

« وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَى يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ، فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » . .

يمضى هـذا الشوط من السورة فى مجالها الأصيل . المجال الـكونى العام الذى ترتبط به أقدار الناس وأقدار الأحداث ؛ والذى تتناسق فيـه سنن الحياة وسنن الـكون وسنن الدين القيم بلا تعارض ولا اصطدام .

وفى هذا الشوط يرسم صورة لتقلب الأهواء البشرية أمام ثبات السنن ؛ ووهن عقائد الشرك أمام قوة الدين القيم . ويصور نفوس البشر فى السراء والضراء وعنـد قبض الرزق وبسطه ، وهى تضطرب فى تقديراتها وتصوراتها مالم تستند إلى ميزان الله الذى لايضطرب أبدا ؛ ومالم ترجع إلى قدر الله الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وبمناسبة الرزق يوجههم إلى الطريقة التى تنمى المـال وتزكيه . الطريقة المتفقة مع النهج القيم والطريق الواصل . ويردهم بهـذا إلى معرفة الخالق الرازق الذى يميت ويحيى . أما الشركاء الذين يتخذونهم من دون الله فمـاذا يفعلون ؟ وينبههم إلى الفساد الذى تنشئه عقيدة الشرك فى كل مكان . كما يوجه الرسول —

صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين إلى الاستقامة على منهجهم القيم . قبل أن يأتى اليوم الذى لاعمل فيه ولا كسب ، ولكن حساب وجزاء عما كانوا يعملون . وفى معرض الحديث عن رزق الله يوجه قلوبهم إلى أنماط من هذا الرزق . منها مايتعلق بحياتهم المادية كالماء النازل من السماء الذى يحيى الأرض بعد موتها . وتجرى الفلك فيه بأمره . ومنها تلك الآيات البينات التى تنزل على الرسول لإحياء موات القلوب والنفوس، ولكنهم لايهتدون ولايسمعون . ويطوف بهم فى جولة مع أطوار نشأتهم وحياتهم حتى ينتهوا إلى خالقهم ، فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون . . ويختم هذا الشوط بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوجيهه إلى الصبر حتى يتحقق وعد الله الحق اليقين .

* * *

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . .

إنها صورة للنفس البشرية التى لاتستمد من قيمة ثابتة ، ولا تسير على نهج واضح . صورة لها وهى تتأرجح بين الانفعالات الطارئة ، والتصورات العارضة ، والاندفاعات مع الأحداث والتيارات . فعند مس الضر يذكر الناس ربهم ، ويلجأون إلى القوة التى لاعاصم إلا إياها ، ولا نجاة إلا بالإنابة إليها . حتى إذا انكشفت الغمة ، وانفرجت الشدة ، وأذاقهم الله رحمة منه : « إذا فريق منهم بربهم يشركون » . . وهو الفريق الذى لايستند إلى عقيدة صحيحة تهديه إلى نهج مستقيم . ذلك أن الرخاء يرفع عنهم الاضطرار الذى ألجأهم إلى الله ؛ وينسيهم الشدة التى ردتهم إليه . فيقودهم هذا إلى الكفر بما آتاهم الله من الهدى وما آتاهم من الرحمة ، بدلا من الشكر والاستقامة على الإنابة .

وهنا يعاجل هذا الفريق بالتهديد فى أشخاص المشركين الذين كانوا يواجهون الرسالة المحمدية ، فيوجه إليهم الخطاب ، ويحدد أنهم من هذا الفريق الذى يعنيه :

« فتمتعوا فسوف تعلمون » ..

وهو تهديد ملفوف ، هائل مخيف . وإن الإنسان ليخاف من تهديد حاكم أو رئيس فكيف وهذا التهديد من فاطر هذا الكون الهائل ، الذى أنشأه كله بقولة : كن ! « فتمتعوا فسوف تعلمون » !

وبعد هذه المعاجلة بالتهديد الرعيب يعود فيسأل فى استنكار عن سندهم فى هذا الشرك الذى يجازون به نعمة الله ورحمته ؛ وهذا الكفر الذى ينتهون إليه :

« أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ؟ » . .

فإنه لاينبغى لبشر أن يتلق شيئا فى أمر عقيدته إلا من الله . فهل أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذى يتخذونه ؟ وهو سؤال استنكارى تهكمى ، يكشف عن تهافت عقيدة الشرك ، التى لاتستند إلى حجة ولا تقوم على دليل . ثم هو سؤال تقريرى من جانب آخر ، يقرر أنه لاعقيدة إلا ماينزل من عند الله . وما يأتى بسلطان من عنده . وإلا فهو واهن ضعيف .

ثم يعرض صفحة أخرى من صفحات النفس البشرية فى الفرح بالرحمة فرح الخفة والاغترار؛ والقنوط من الشدة واليأس من رحمة الله :

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذاهم يقنطون » . .

وهى كذلك صورة للنفس التى لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها فى جميع الأحوال؛ وميزان دقيق لايضطرب مع التقلبات . والناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لايرتبطون بذلك الخط ولايزنون بهذا الميزان . فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذى ينسيهم مصدرها وحكمتها ، فيطيرون بها ، ويستغرقون فيها ، ولايشكرون النعم ، ولايستيقظون إلى مافى النعمة من امتحان وابتلاء . حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة « سيئة » عموا كذلك عن حكمة الله فى الابتلاء بالشدة ، وفقدوا كل رجاء فى أن يكشف الله عنهم الغمة ؛ وقنطوا من رحمته ويئسوا من فرجه . . وذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله ، التى لاتدرك سننه ولاتعرف حكمته . أولئك الذين لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا !

ويعقب على هذه الصورة بسؤال استنكارى يعجب فيه من أمرهم ، وقصر نظرهم وعمى بصيرتهم . فالأمر فى السراء والضراء يتبع قانونا ثابتا ، ويرجع إلى مشيئة الله سبحانه ، فهو الذى

ينعم بالرحمة ، ويبتلى بالشدة ؛ ويبسط الرزق ويضيقه وفق سنته ، وبمقتضى حكمته . وهـذا مايقع كل آن ، ولـكنهم هم لايبصرون :

« أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ » . .

فلا داعى للفرح والبطر عند البسط ، ولا لليأس والقنوط عند القبض ؛ فإنما هى أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله ، وفيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله ، ودلالة على اطراد السنة ، وثبات النظام ، رغم تقلب الأحوال :

« إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . .

***

وإذا كان الله هو الذى يبسط الرزق ويقبضه ؛ وهو الذى يعطى ويمنع وفق مشيئته ؛ فهو يبين للناس الطريق الذى تربو أموالهم فيه وتربح . لا كما يظنون هم ، بل كما يهديهم الله :

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل . ذلك خـير للذين يريدون وجه الله ؛ وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عنـد الله ؛ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . .

وما دام المـال مال الله ، أعطاه رزقا لبعض عباده ، فالله صاحب المـال الأول قد قرر قسما منه لفئات من عباده ، يؤديها إليهم من يضع يده على ذلك المـال . ومن ثم سماها حقا . ويذكر هنا من هذه الفئات « ذا القربى والمسكين وابن السبيل » . ولم تكن الزكاة بعـد قد حددت ولامستحقوها قد حصروا . ولـكن المبدأ كان قد تقرر . مبدأ أن المـال مال الله ، بما أنه هو الرازق به ، وأن لفئات من المحتاجين حقا فيه مقررا لهم من صاحب المـال الحقيقى ، يصل إليهم عن طريق واضع اليد على هذا المـال . . وهذا هو أساس النظرية الإسلامية فى المـال . وإلى هذا الأساس ترجع جميع التفريعات فى النظرية الاقتصادية للإسلام . فـما دام المـال مال الله ، فهو خاضع إذن لـكل مايقرره الله بشأنه بوصفه المـالك الأول ، سواء فى طريقة تملـكه أو فى طريقة تنميته ، أو فى طريقة إنفاقه . وليس واضع اليد حرا فى أن يفعل به ما يشاء .

وهو هنا يوجه أصحاب المـال الذين اختارهم ليكونوا أمناء عليه إلى خير الطرق للتنمية والفلاح . وهى إيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، والإنفاق بصفة عامة فى سبيل الله :

« ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » .

وكان بعضهم يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا إلى الموسرين من الناس ، كى ترد عليه الهدية مضاعفة ! فبين لهم أن هـذا ليس الطريق للنماء الحقيقى : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » . . هذا ما تذكره الروايات عن المقصود بالآية وإن كان نصها بإطلاقه يشمل جميع الوسائل التى يريد بهـا أصحابها أن ينموا أموالهم بطريقة ربوية فى أى شكل من الأشكال [1] . . وبين لهم فى الوقت ذاته وسيلة النمـاء الحقيقية :

« وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . .

هذه هى الوسيلة المضمونة لمضاعفة المـال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولاعوض من الناس . إنمـا هى إرادة وجـه الله . أليس هو الذى يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذى يعطى الناس ويمنع ؟ فهو الذى يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجهه ؛ وهو الذى ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس . . ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة . فهى التجارة الرابحة هنا وهناك !

* * *

ومن زاوية الرزق والـكسب يعالج قضية الشرك ، وآثارها فى حياتهم وفى حياة من قبلهم ، ويعرض نهاية المشركين من قبل وعاقبتهم التى تشهد بها آثارهم :

« الله الذى خلقـكم ، ثم رزقـكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم . هل من شركائـكم من يفعل من ذلـكم من شىء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون . ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عمـلوا لعلهم يرجعون . قل : سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » . .

وهو يواجههم بواقع أمرهم وحقائق حالهم التى لا يملـكون أن يماروا فى أن الله وحده هو موجدها ؛ أو التى لا يملـكون أن يزعموا أن لآلهتهم المدعاة مشاركة فيها . يواجههم بأن الله هو الذى خلقهم . وأنه هو الذى رزقهم . وأنه هو يميتهم . وأنه هو يحييهم . فأما الخلق فهم يقرون به . وأما الرزق فهم لا يملـكون أن يزعمـوا أن آلهتهم المدعاة ترزقهم شيئا . وأما الإماتة فلا حجة لهم على غير مايقرره القرآن فيها . بقى الإحياء وكانوا يمـارون فى وقوعه .

(١) غير أن هذه الطريقة لا حرمة فيها كحرمة الربا المعروف . غير أنها ليست طريقة النماء الزكى الكريم .

وهو يسوقه إليهم ضمن هذه المسلمات ليقرره فى وجدانهم بهذه الوسيلة الفريدة ، التى تخاطب فطرتهم من وراء الانحراف الذى أصابهم . وما تملك الفطرة أن تنكر أمر البعث والإعادة .

ثم يسألهم : « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ » ولا ينتظر جوابا منهم ، فهو سؤال للنفى فى صورة التقريع غير محتاج إلى جواب ! إنما يعقب عليه بتنزيه الله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم ؛ وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع فى الأرض الفساد ، ويملؤها براً وبحرا بهذا الفساد ، ويجعله مسيطرا على أقدارها ، غالبا عليها :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » . .

فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لايتم عبثا ، ولايقع مصادفة ؛ إنما هو تدبير الله وسنته .. « ليذيقهم بعض الذى عملوا » من الشر والفساد ، حينما يكتوون بناره ، ويتألمون لما يصيبهم منه : « لعلهم يرجعون » فيعزمون على مقاومة الفساد ، ويرجعون إلى الله وإلى العمل الصالح وإلى المنهج القويم .

ويحذرهم فى نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم ، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم ، ويرونها فى آثارهم حين يسيرون فى الأرض ، ويمرون بهذه الآثار فى الطريق :

«قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » .

وكانت عاقبتهم ما يرون حين يسيرون فى الأرض ؛ وهى عاقبة لاتشجع أحدا على سلوك ذلك الطريق !

* * *

وعند هذا المقطع يشير إلى الطريق الآخر الذى لايضل سالكوه ، وإلى الأفق الآخر الذى لا يخيب قاصدوه . .

« فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله . يومئذيصدعون . من

كفر فعليه كفره ؛ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لايحب الكافرين » . .

والصورة التى يعبر بها عن الاتجاه إلى الدين القيم صورة موحية معبرة عن كمال الاتجاه ، وجديته ، واستقامته : « فأقم وجهك للدين القيم » . . وفيها الاهتمام والانتباه والتطلع ، واستشراف الوجهة السامية والأفق العالى والاتجاه السديد .

وقد جاء هذا التوجيه أول مرة فى السورة بمناسبة الكلام عن الأهواء المتفرقة والأحزاب المختلفة . أما هنا فيجىء بمناسبة الشركاء ، والرزق ومضاعفته ، والفساد الناشىء من الشرك ، ومايذوقه الناس فى الأرض من ظهور الفساد واستعلائه ، وعاقبة المشركين فى الأرض . يجىء بهذه المناسبة فيبين جزاء الآخرة ونصيب المؤمنين والكافرين فيها ؛ ويحذرهم من يوم لامرد له من الله . يوم يتفرقون فريقين : « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » . .

ويمهد معناها يمهد ويعبد ، ويعد المهد الذى فيه يستريح ، ويهيء الطريق أو المضجع المريح . وكلها ظلال تتجمع وتتناسق ، لتصور طبيعة العمل الصالح ووظيفته . فالذى يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيء أسباب الراحة فى ذات اللحظة التى يقوم فيها بالعمل الصالح لابعدها . وهذا هو الظل الذى يلقيه التعبير . وذلك : « ليجزى الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . « من فضله » . . فما يستحق أحد من بنى آدم الجنة بعمله . وما يبلغ مهما عمل أن يشكر الله على جزء من فضله . إنما هو فضل الله ورحمته بالمؤمنين . وكراهيته سبحانه للكافرين : « إنه لايحب الكافرين » . .

* * *

بعد ذلك يأخذ معهم فى جولة أخرى تكشف عن بعض آيات الله ، وما فيها من فضل الله ورحمته ، فيما يهبهم من رزق وهدى ينزل عليهم ، فيعرفون بعضه وينكرون بعضه . ثم لايشكرون ولايهتدون .

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقهم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين . الله الذى يرسل الرياح ،

فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير . ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون » . .

إنه يجمع فى هذه الآيات بين إرسال الرياح مبشرات ، وإرسال الرسل بالبينات ، ونصر المؤمنين بالرسل ، وإنزال المطر المحيي ، وإحياء الموتى وبعثهم . . وهو جمع له مغزاه . . إنها كلها من رحمة الله ، وكلها تتبع سنة الله . وبين نظام الكون ، ورسالات الرسل بالهدى ، ونصر المؤمنين ، صلة وثيقة . وكلها من آيات الله . ومن نعمته ورحمته ، وبها تتعلق حياتهم ، وهى مرتبطة كلها بنظام الكون الأصيل .

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » . . تبشر بالمطر . وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها . « وليذيقكم من رحمته » بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء . « ولتجرى الفلك بأمره » سواء بدفع الرياح لها ؛ أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجرى السفن فيها . وهى تجرى — مع هذا — بأمر الله . ووفق سنته التى فطر عليها الكون ؛ وتقديره الذى أودع كل شيء خاصيته ووظيفته ، وجعل من شأن هذا أن تخف الفلك على سطح الماء فتسير ، وأن تدفعها الرياح فتجرى مع التيار وضد التيار . وكل شيء عنده بمقدار . . « ولتبتغوا من فضله » فى الرحلات التجارية ، وفى الزرع والحصاد ، وفى الأخذ والعطاء . وكله من فضل الله الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا : « ولعلكم تشكرون » على نعمة الله فى هذا كله . . وهذا توجيه إلى ماينبغى أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب .

ومثل إرسال الرياح مبشرات إرسال الرسل بالبينات :

« ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات » . .

ولكن الناس لم يستقبلوا رحمة الله هذه — وهى أجل وأعظم — استقبالهم للرياح المبشرات . ولا انتفعوا بها — وهى أنفع وأدوم — انتفاعهم بالمطر والماء ! ووقفوا تجاه الرسل فريقين : مجرمين لايؤمنون ولايتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله . ومؤمنين يدركون آيات الله ، ويشكرون رحمته ، ويثقون بوعده ، ويحتملون من

المجرمين مايحتملون . . ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عـدل الله ووعده الوثيق .

« فانتقمنا من الذين أجرموا . وكان حقا علينا نصر المؤمنين » . .

وسبحان الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين ؛ وجعله لهم حقا ، فضلا وكرما . وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لاتحتمل شكا ولا ريبا . وكيف والقائل هو الله القوي العزيز الجبار المتكبر القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . يقولهـا سبحانه معبرة عن إرادته التي لاترد ، وسنته التي لاتتخلف ، وناموسه الذي يحكم الوجود .

وقد يبطىء هذا النصر أحيانا ـ في تقدير البشر ـ لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب الله ، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها الله . والله هو الحكيم الخبير . يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمـه ، وفق مشيئته وسنته . وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لاتتكشف . ولـكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح . ووعده القاطع واقع عن يقين ، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين .

بعد ذلك يمضي السياق يقرر أن الله هوالذي يرسل الرياح ، وينزل المطر ، ويحيي الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون . . سنة واحدة ، وطريقة واحدة ، وحلقات في سلسلة الناموس الـكبير :

« الله الذي يرسل الرياح » . . وفق ناموسه في تـكوين هذا الـكون وتنظيمه وتصريفه . « فتثير سحابا » . بمـا تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض . « فيبسطه في السماء » . . ويفرشه ويمده . « ويجعله كسفا » . . بتجميعه وتـكثيفه وتراكمه بعضه فوق بعض ، أو يصطدم بعضه ببعض ، أوتنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة ، أو كسفة منه وكسفة . « فترى الودق يخرج من خلاله » وهو المطر يتساقط من خلال السحاب . « فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » . . ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر . والعرب أعرف الناس بهـذه الإشارة . وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء ، وقد تضمنت ذكره أشعارهم وأخبارهم في لهفة وحب وإعزاز !

« وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » . .

وهذا تقرير لحالهم قبل أن ينزل عليهم المطر : حالهم من اليأس والقنوط والهمود . . ثم

هم يستبشرون . . « فانظر إلى آثار رحمة الله » . . ! انظر إليها فى النفوس المستبشرة بعد القنوط ، وفى الأرض المستبشرة بعد الهمود ؛ وفى الحياة التى تدب فى التربة وتدب فى القلوب.

«فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها » .. إنها حقيقة واقعة منظورة ، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر . ومن ثم يتخذها برهانا على قضية البعث والإحياء فى الآخرة . على طريقة الجدل القرآنى ، الذى يتخذ من مشاهد الكون المنظورة ، وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه ؛ ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه :

« إن ذلك لمحيى الموتى » . . « وهو على كل شىء قدير » . .

وهذه آثار رحمة الله فى الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير .

وبعد تقرير هذه الحقيقة يمضى فى تصوير حال القوم الذين يستبشرون بالرياح المحملة بالماء ؛ ويستروحون بآثار رحمة الله عند نزوله من السماء . . يمضى فى تصوير حالهم لوكانت الريح التى رأوها مصفرة بما تحمل من رمل وتراب لا من ماء وسحاب — وهى الريح المهلكة للزرع والضرع — أو التى يصفر منها الزرع فيصير حطاما :

« ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون » ..

يكفرون سخطا ويأسا ، بدلا من أن يستسلموا لقضاء الله ، ويتوجهوا إليه بالضراعة ليرفع عنهم البلاء . وهى حال من لايؤمن بقدرالله ، ولا يهتدى ببصيرته إلى حكمة اللهفى تدبيره ، ولا يرى من وراء الأحداث يد الله التى تنسق هذا الكون كله ؛ وتقدر كل أمر وكل حادث . وفق ذلكالتنسيق الشامل للوجود المترابط الأجزاء . .

***

وعند هذا الحد من تصوير تقلبات البشر وفق أهوائهم ، وعدم انتفاعهم بآيات الله التى يرونها ماثلة فى الكون منحولهم ؛ وعدم إدراكهم لحكمة الله من وراء مايشهدونه من وقائع وأحداث . . عند هذا يتوجه بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعزيه عن إخفاق جهوده فىهداية الكثير منهم ؛ ويرد هذا إلى طبيعتهم التى لا حيلة له فيها ، وانطماس بصيرتهم وعماها :

« فإنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

وهو يصورهم موتى لا حياة فيهم ، صما لاسمع لهم ، عميا لايهتدون إلى طريق . . والذى ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لاحياة فيه . إنما هى حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدى بفطرته التى قلما تخونه ! والذى لايستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ فى القلوب أصم ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذى لايبصر آيات الله المبثوثة فى صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان !

« إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » . .

وهؤلاء هم الذين يسمعون الدعوة ، لأن قلوبهم حية ، وبصائرهم مفتوحة ، وإدراكهم سليم . فهم يسمعون فيسلمون . ولاتزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب .

***

بعد ذلك يعود السياق ليجول بهم جولة جديدة ، لا فى مشاهد الكون من حولهم ، ولكن فى ذوات أنفسهم ، وفى أطوار نشأتهم على هذه الأرض ؛ ويمتد بالجولة إلى نهايتها هنالك فى الحياة الأخرى . فى ترابط بين الحياتين وثيق :

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة — يخلق ما يشاء — وهو العليم القدير . ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة . كذلك كانوا يؤفكون : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون » . .

إنها جولة مديدة ، يرون أوائلها فى مشهود حياتهم ؛ ويرون أواخرها مصورة تصويرا مؤثرا كأنها حاضرة أمامهم . وهى جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

« الله الذى خلقكم من ضعف » . . ولم يقل خلقكم ضعافا أو فى حالة ضعف ؛ إنما قال : « خلقكم من ضعف » كأن الضعف مادتهم الأولى التى صيغ منها كيانهم . . والضعف الذى تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى فى تكوين هذا الإنسان .

إنه ضعف البنية الجسدية الممثل فى تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التى ينشأ منها الجنين . ثم فى الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف . ثم فى الطفل والصبى حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين . .

ثم هو ضعف المادة التى ذرأ منها الإنسان . الطـين . الذى لولا نفخة من روح الله لظل فى صورته المـادية أو فى صورته الحيوانية ، وهى بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفـة .

ثم هو ضعف الـكيان النفسى أمام النوازع والدفعات ، والميول والشهوات ، التى لولا النفخة العلوية وماخلقت فى تلك البنية من عزائم واستمدادات ، لـكان هذا الـكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام .

« الله الذى خلقـكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة » . . قوة بكل تلك المعانى التى جاءت فى الحديث عن الضعف . قوة فى الـكيان الجسدى ، وفى البناء الإنسانى ، وفى التـكوين النفسى والعقلى .

« ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » . . ضعفا فى الـكيان الإنسانى كله . فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها . وقد يصاحبها انحدار نفسى ناشىء من ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل ، ولا يجد من إرادته عاصما . ومع الشيخوخة الشيب ، يذكر تجسما وتشخيصا لهيئة الشيخوخة ومنظرها .

وإن هذه الأطوار التى لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، والتى لا تتخلف مرة فيمن يعد له فى العمر، ولا تبطىء مرة فلا تجىء فى موعدها المضروب . إن هذه الأطوار التى تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنهـا فى قبضة مدبرة ، تخلق ما تشاء ، وتقدر ما تشاء ، وترسم لـكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره ، وفق علم وثيق وتقدير دقيق : « يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

ولا بد لهذه النشأة المحكمة المقدرة من نهاية كذلك مرسومة مقدرة . هذه النهاية يرسمها فى مشهد من مشاهد القيامة ، حافل بالحركة والحوار على طريقة القرآن :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة » . .

فهكذا يتضاءل فى حسهم كل ماوراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون : مالبثوا غير ساعة . ويحتمل أن يكون قسمهم منصبا على مدة لبثهم فى القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم فى الأرض أحياء وأمواتا . « كذلك كانوا يؤفـكون » ويصرفون عن الحق والتقدير الصحيح . حتى يردهم أولو العلم الصحيح إلى التقدير الصحيح :

« وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث . فهذا يوم البعث . ولـكنكم كنتم لاتعلمون » . .

وأولو العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون ، الذين آمنوا بالساعة ، وأدركوا ماوراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح وأهل الإيمان البصير . وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه « لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث » . . فهـذا هو الأجل المقدور ، ولا يهم طويلا كان أم كان قصيرا . فقد كان ذلك هو الموعد ، وقد تحقق :

« فهذا يوم البعث ولـكنكم كنتم لاتعلمون » .

ثم يختم المشهد بالنتيجة الـكلية فى إجمـال يصور ماوراءه ممـا لحق بالظالمين الذين كانوا يكذبون بيوم الدين :

« فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون » . .

فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم أحد فيما فعلوه ، أو يطلب إليهم الاعتـذار . فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب ! .

* * *

ومن هذا المشهد البائس اليائس يردهم إلى ماهم فيـه من عناد وتـكذيب ، وتلك كانت عاقبة العناد والتـكذيب :

«ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ؛ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون » . .

وهى نقلة بعيدة فى الزمان والمـكان ؛ ولـكنها تجيء فى السياق ، وكأنها قريب من قريب . وينطوى الزمان والمـكان ، فإذا هم مرة أخرى أمام القرآن ، وفيه من كل مثل ؛ وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب ؛ وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول ؛ وفيه من شتى اللمسات الموحية العميقة التأثير. وهو يخاطب كل قلب وكل عقل فى كل بيئة وكل محيط . وهو يخاطب النفس البشرية فى كل حالة من حالاتها ، وفى كل طور من أطوارها . ولـكنهم ــ بعد هذا كله ــ يكذبون بكل آية ، ولايكتفون بالتـكذيب ، بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح ، فيقولون عنهم : إنهم مبطلون :

« ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون » ..

ويعقب على هذا الكفر والتطاول :

« كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون » . .

كذلك . بمثل هذه الطريقة ، ولمثل هــذا السبب . فهؤلاء الذين لايعلمون مطموسو القلوب ، لاتتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله ، متطاولون على أهل العلم والهــدى . ومن ثم يستحقون أن يطمس الله على بصيرتهم ، وأن يطبع على قلوبهم ، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب !

***

ثم يأتى الإيقاع الأخير فى السورة بعد تلك الجولات مع المشركين فى الكون والتاريخ وفى ذوات أنفسهم وفى أطوار حياتهم ، ثم هم بعد ذلك كله يكفرون ويتطاولون . . يأتى الإيقاع الأخير فى صورة توجيه لقلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه من المؤمنين :

« فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » . .

إنه الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية ! والثقة بوعد الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حـيرة ولا شكوك . . الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تـكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله . ذلك أنهم محجوبون عن العـلم محرومون من أسباب اليقين . فأما المؤمنون الواصلون المستمسكون بحبل الله فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين . مهما يطل هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم !

***

وهكذا تختم السورة التى بدأت بوعد الله فى نصر الروم بعد بضع سنين ، ونصر المؤمنين . تختم بالصبر حتى يأتى وعد الله ؛ والصبر كذلك على محاولات الاستخفاف والزعزعة من الذين لايوقنون .

فيتناسق البدء والختام . وتنتهى السورة وفى القلب منها إيقاع التثبيت القوى بالوعـد الصادق الذى لا يكذب ، واليقين الثابت الذى لايخون . .

سُورة لقمان مكية
وآياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ ،

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ . إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » .

جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذى خلق هذه الفطرة ، والذى يعلم ما يصلح لها وما يصلحها ، ويعلم كيف يخاطبها ، ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ؛ والتى تعرفها قبل أن تخاطب بهذا القرآن ، لأنها قائمة عليها أصلا فى تكوينها الأول . . تلك هى حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده ، والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح . . إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض ؛ وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم ؛ وتنحرف بها عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة . هنا يجىء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذى تعرفه ؛ ويعرض عليها الحقيقة التى غفلت عنها بالأسلوب الذى تألفه ؛ ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله ، مستقيما مع العقيدة ، مستقيما مع الفطرة ، مستقيما على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير . .

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية فى مخاطبة القلب البشرى . وهى تعالج قضية العقيدة فى نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك الحقيقة . إنها القضية التى تعالجها السور المكية فى أساليب شتى ، ومن زوايا منوعة ، تتناول القلب البشرى من جميع أقطاره ؛ وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التى تخاطب الفطرة وتوقظها . .

هذه القضية الواحدة ـ قضية العقيدة ـ تتلخص هنا فى توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه . وفى اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . وفى اتباع ما أنزل الله والتخلى عما عداه من مألوفات ومعتقدات .

والسورة تتولى عرض هذه القضية بطريقة تستدعى التدبر لإدراك الأسلوب القرآنى العجيب فى مخاطبة الفطر والقلوب . وكل داع إلى الله فى حاجة إلى تدبر هذا الأسلوب .

إنها تعرض هذه القضية فى مجال العرض القرآنى . وهو هذا الكون الكبير . سماؤه وأرضه . شمسه وقمره . نهاره وليله . أجواؤه وبحاره ، أمواجه وأمطاره . نباته وأشجاره . . وهذا المجال الكونى يتكرر فى القرآن الكريم . فيحيل الكون كله مؤثرات ناطقة ، وآيات مبثوثة عن الإيمان والشمائل ، تخاطب القلوب البشرية وتؤثر فيها وتستحييها ، وتأخذ عليها المسالك والدروب .

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد ، فإنها تعرض فى السورة أربع مرات فى أربع جولات ، تطوف كل منها بالقلب البشرى فى ذلك المجال الفسيح ، مستصحبة فى كل مرة مؤثرات جديدة ، ومتبعة أسلوبا كذلك جديدا فى العرض والتناول . وتتبع هذه الجولات وهى تبدأ وتنتهى بطريقة عجيبة فيه متاع للقلب والعقل . إلى جانب مافيه من دواعى التأثر والاستجابة .

* * *

تبدأ الجولة الأولى بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة ؛ فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف ، هى آيات الكتاب الحكيم ، وهى هدى ورحمة للمحسنين . وهؤلاء المحسنون هم : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » فتقرر قضية اليقين بالآخرة وقضية العبادة لله . ومعها مؤثر نفسى ملحوظ هو أن « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ومن ذا الذى لايريد أن يكون من المفلحين ؟ . . وفى الجانب الآخر فريق من الناس يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذ تلك الآيات هزوا . وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسى مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله : « أولئك لهم عذاب مهين » . . ثم يمضى فى وصف حركات هذا الفريق : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا

كأن لم يسمعها » . . ومع الوصف مؤثر نفسى يحقر هـذا الفريق : « كأن فى أذنيه وقرا » ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح فى التعبير : « فبشره بعذاب أليم » والبشارة هنـا فيها مافيها من التهكم الملحوظ ! . . ثم يعود إلى المؤمنـين يفصل شيئا من فلاحهم الذى أجمله فى أول السورة ؛ ويبين جزاءهم فى الآخرة ، كما كشف عن جزاء المستهزئين المستكبرين : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحـات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعـد الله حقا ، وهو العزيز الحـكيم » . . وهنا يعرض صفحة الـكون الـكبير مجـالا للبرهان الذى يطالع الفطرة من كل جانب ، ويخاطبها بكل لسان ، ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين : « خلق السماوات بغير عمـد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . . وأمام هـذه الأدلة الـكونية التى تهول الحس وتبده الشعور يأخذ بتلابيب القلوب الشاردة ، التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه الهائل العظيم : « هذا خلق الله . فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين » . .

وعند هذا الإيقاع الـكونى الضخم العميق تنتهى الجولة الأولى بقضاياها ومؤثراتها معروضة فى ساحة الـكون الـكبير .

فأما الجولة الثانية فتبدأ من خـلال نفوس آدمية ، وتتناول القضية ذاتها فى المجـال ذاته بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة .. « ولقد آتينا لقمان الحـكمة » فمـا طبيعة هذه الحـكمة وما مظهرها الفريد ؟ إنها تتلخص فى الاتجاه لله بالشكر : « أن اشكر لله » فهذه هى الحـكمة وهذا هو الاتجاه الحـكيم . . والخطوة التالية هى اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة : نصيحة حكيم لابنه . فهى نصيحة مبرأة من العيب ، صاحبها قد أوتى الحـكمة . وهى نصيحة غير متهمة ، فما يمكن أن تتهم نصيحة والد لولده . هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التى قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسية ومعها مؤثرات جديدة : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » . . ويؤكـد هـذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » ويقرن قضية الشكر لله بالشكر لهـذين الوالدين ، فيقدمها عليهـا : « أن اشكرلى ولوالديك » . . ثم يقرر القاعدة الأولى فى قضية

العقيدة ، وهي أن وشيجة العقيدة هي الوشيجة الأولى ، المقدمة على وشيجة النسب والدم . وعلى مافي هذه الوشيجة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيجة الأولى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلي » . ويقرر معها قضية الآخرة : « ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . . ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهو يصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته ، تصويراً يرتعش له الوجدان البشري وهو يتابعه في المجال الكوني الرحيب : « يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » . . ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على مايستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التي لابد أن تواجه صاحب العقيدة ، وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية ، فيتجاوز بها نفسه إلى غيره : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . . ومع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب . أدب الداعي إلى الله . ألا يتطاول على الناس ، فيفسد بالقدوة مايصلح بالكلام : « ولاتصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . . والمؤثر النفسي بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ في التعبير . وبه تنتهي هذه الجولة الثانية ، وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود ، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد .

ثم تبدأ الجولة الثالثة . . تبدأ بعرض القضية المعهودة في مجال السماوات والأرض ، مصحوبة بمؤثر منتزع من علاقة البشر بالسماوات والأرض وما فيهما من نعم سخرها الله للناس وهم لايشكرون : « ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السماوات ومافي الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير » . . وفي ظل هذا المؤثر يبدو الجدل في الله مستنكرا من الفطرة ، تمجه القلوب المستقيمة . . ثم يتابع استنكار موقف الكفر والجحود : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » . . وهو موقف سخيف مطموس ، يتبعه بمؤثر مخيف : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . . ومن ثم يعرض قضية الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضية الإيمان والكفر : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة

الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ».. ويشير إلى علم الله الواسع الدقيق : « إن الله عليم بذات الصدور » . ويصحب ذلك العرض بتهديد مخيف : « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » . . وقرب ختام الجولة يقفهم وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهى تواجه هذا الكون ، فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لايعلمون » .. ويختم الجولة بمشهد كونى يصور امتداد علم الله بلانهاية ، وانطلاق مشيئته فى الخلق والإنشاء بلاحدود ؛ ويجعل من هذا دليلا كونيا على البعث والإعادة وعلى الخلق والإنشاء : « ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

وتبدأ الجولة الرابعة بمشهد كونى ذى إيقاع خاص فى القلب البشرى . مشهد الليل وهو يطول فيدخل فى جسم النهار ويمتد ؛ والنهار وهو يطول فيدخل فى جسم الليل ويمتد . ومشهد الشمس والقمر مسخرين فى فلكيهما يجريان فى حدود مرسومة إلى وقت لايعلمه إلا خالقهما الخبير بهما وبالناس وبما يعملون : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير » . . ويتخذ من هذا المشهد الكونى دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة : « ذلك أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير » . . ويلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس فى صورة الفلك التى تجرى فى البحر : « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ » ويعقب على هذا بوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذى يبعدها عن بارئها ؛ ويتخذ من هذا المنطق دليلا على قضية التوحيد : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ؛ ومايجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .. وبمناسبة موج البحر وهوله يذكرهم بالهول الأكبر ، وهو يقرر قضية الآخرة . الهول الذى يفصم وشائج الدم التى لايفصلها فى الدنيا هول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم . واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ، ولامولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور » . .

وعند هذا المقطع وهــذا المؤثر الذى يرتجف له الـكيان يختم السورة بآية تقرر القضايا التى عالجتها جميعــا ، فى إيقاع قوى عميق مرهوب : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام . وماتدرى نفس ماذا تـكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » . .

هــذه الجولات الأربع بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أساوب القرآن الـكريم فى معالجة القلوب . هذا الأساوب المختار من خالق هــذه القلوب العليم بمداخلها . الخبير بمــا يصلح لها وما تصلح به من الأساليب . .

والآن نأخذ فى تفصيل هذا الإجمال . فنعرض هذه الجولات الأربع فى درسين لما بين كل اثنين منها من ترابط واتساق . .

* * *

« ألم . تلك آيات الـكتاب الحـكيم . هــدى ورحمــة للمحسنين ، الذين يقيمون الصــلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . .

الافتتاح بالأحرف المقطعة . « ألف . لام . ميم » والإخبار عنهــا بأنها : « تلك آيات الـكتاب الحـكيم » للتنبيه إلى أن آيات الـكتاب من جنس تلك الأحرف — على نحو ماتقدم فى السور المبدوءة بالأحرف — واختيار وصف الـكتاب هنا بالحـكمة ، لأن موضوع الحـكمة مكرر فى هذه السورة ، فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الـكتاب فى جوه المناسب على طريقة القرآن الـكريم . ووصف الـكتاب بالحـكمة يلقى عليه ظلال الحياة والإرادة ، فـكأنما هو كائن حى متصف بالحـكمة فى قوله وتوجيهه ، قاصد لما يقول ، مريد لما يهدف إليه . وإنه لـكذلك فى صميمه . فيه روح . وفيه حياة . وفيه حركة . وله شخصية ذاتية مميزة . وفيه إيناس . وله صحبة يحس بها من يعيشون معه ويحيون فى ظلاله . ويشعرون له بحنين وتجاوب كالتجاوب بين الحى والحى ، وبين الصديق والصديق !

هذا الـكتاب الحـكيم . أو آياته . «هدى ورحمة للمحسنين » فهذه حاله الأصيلة الدائمة . . أن يكون هدى ورحمة للمحسنين . هدى يهديهم إلى الطريق الواصل الذى لا يضل سالـكوه .

ورحمة بما يسكبه الهدى فى القلب من راحة وطمأنينة وقرار ؛ وما يقود إليه من كسب وخير وفلاح ؛ وبمـا يعقده من الصلات والروابط بين قلوب المهتدين به ؛ ثم بين هذه القلوب ونواميس الـكون الذى تعيش فيه ، والقيم والأحوال والأحداث التى تتعارف عليها القلوب المهتدية ، وتتعارف الفطر التى لا تزيغ . .

* * *

والمحسنون هم : « الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » . . وإقامة الصلاة وأداؤها على وجهها وفى وقتها أداء كاملا تتحقق به حكمتها وأثرها فى الشعور والسلوك ، وتنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، ويتم به هـذا الأنس بالله وتذوق حلاوته التى تعلق القلوب بالصلاة . . وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطرى ، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتـكن إلى التـكافل والتعاون . ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة ومودات القلوب التى لم يفسدها الترف ولا الحرمان . . واليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشرى ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا ؛ ومراقبة الله فى السر والعلن وفى الدقيق والجليل ؛ والوصول إلى درجة الإحسان التى سئل عنها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تـكن تراه فإنه يراك[1] » . .

وهؤلاء المحسنون هم الذين يكون الـكتاب لهم هدى ورحمة ؛ لأنهم بما فى قلوبهم من تفتح وشفافية يجدون فى صحبة هذا الـكتاب راحة وطمأنينة ؛ ويتصلون بما فى طبيعته من هدى ونور ، ويدركون مراميه وأهدافه الحـكيمة ، وتصطلح نفوسهم عليه ، وتحس بالتوافق والتناسق ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . وإن هذا القرآن ليعطى كل قلب بمقدار ما فى هذا القلب من حساسية وتفتح وإشراق ؛ وبقدر ما يقبل عليه فى حب وتطلع وإعزاز . . إنه كائن حى يعاطف القلوب الصديقة ، ويجاوب المشاعر المتوجهة إليه بالرفرفة والحنين !

وأولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم يوقنون بالآخرة . . « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . ومن هدى فقد أفلح ، فهو سائر على النور ، واصل

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمـان .

إلى الغاية ، ناج من الضلال فى الدنيا ، ومن عواقب الضلال فى الآخرة ؛ وهو مطمئن فى رحلته على هذا الكوكب تتناسق خطاه مع دورة الأفلاك ونواميس الوجود ؛ فيحس بالأنس والراحة والتجاوب مع كل كائن فى الوجود .

* * *

أولئك المهتدون بالكتاب وآياته ، المحسنون ، المقيمون للصلاة ، المؤتون للزكاة ، الموقنون بالآخرة ، المفلحون فى الدنيا والآخرة . . أولئك فريق . . وفى مقابلهم فريق :

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا . فبشره بعذاب أليم » . .

ولهو الحديث كل كلام يلهى القلب ويأكل الوقت ، ولايثمر خيرا ولا يؤتى حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلف فى هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التى يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ، ويرسم لها الطريق . والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود فى كل زمان وفى كل مكان . وبعض الروايات تشير إلى أنه كان تصويرا لحادث معين فى الجماعة الإسلامية الأولى . وقد كان النضر ابن الحارث يشترى الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ؛ ثم يجلس فى طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — محاولا أن يجذبهم إلى سماع تلك الأساطير والاستغناء بها عن قصص القرآن الكريم . ولكن النص أعم من هذا الحادث الخاص إذا صح أنه وارد فيه . وهو يصور فريقا من الناس واضح السمات ، قائما فى كل حين . وقد كان قائما على عهد الدعوة الأولى فى الوسط المكى الذى نزلت فيه هذه الآيات .

« ومن الناس من يشترى لهو الحديث » . . يشتريه بماله ويشتريه بوقته ، ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى فيه عمره المحدود ، الذى لايعاد ولايعود ، يشترى هذا اللهو « ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا » فهو جاهل محجوب ، لايتصرف عن علم ، ولايرمى عن حكمة ؛ وهو سيء النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذى ينفق فيه الحياة . وهو سيء الأدب يتخذ سبيل الله

هزوا ، ويسخر من المنهج الذى رسمه الله للحياة وللناس . ومن ثم يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : « أولئك لهم عذاب مهين » . . ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم .

ثم يمضى فى استكمال صورة ذلك الفريق : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها» وهو مشهد فيه حركة ترسم هيئة المستكبر المعرض المستهين . ومن ثم يعالجه بوخزة مهينة تدعو إلى تحقير هذه الهيئة : « كأن فى أذنيه وقرا » وكأن هـذا الثقل فى أذنيه يحجبه عن سماع آيات الله الكريمة ، وإلا فما يسمعها إنسان له سمع ثم يعرض عنها هذا الإعراض الذميم . ويتم هذه الإشارة المحقرة بتهكم ملحوظ : « فبشره بعذاب أليم » فما البشارة فى هذا الموضوع إلا نوع من التهكم المهين ؛ يليق بالمتكبرين المستهزئين !

* * *

وبمناسبة الحديث عن جزاء الكافرين المستكبرين المعرضين يتحدث عن جزاء المؤمنين العاملين ، الذين تحدث عنهم فى صدر السورة ؛ ويفصل شيئا من أمر فلاحهم الذى أجمله هناك :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقا ، وهو العزيز الحكيم » . .

وحيثما ذكر الجزاء فى القرآن الكريم ذكر قبله العمل الصالح مع الإيمان . فطبيعة هذه العقيدة تقتضى ألا يظل الإيمان فى القلب حقيقة مجردة راكدة معطلة مكنونة ؛ إنما هو حقيقة حية فاعلة متحركة ، ما تكاد تستقر فى القلب ويتم تمامها حتى تتحرك لتحقق ذاتها فى العمل والحركة والسلوك ؛ ولتترجم عن طبيعتها بالآثار البارزة فى عالم الواقع ، المنبثة عما هو كائن منها فى عالم الضمير .

وهؤلاء الذين آمنوا وحققوا إيمانهم بالعمل الصالح « لهم جنات النعيم خالدين فيها » . . لهم هذه الجنات وهذا الخلود تحقيقا لوعد الله الحق . « وعد الله حقا » فقد بلغ من فضل الخالق على العباد أن يوجب على نفسه الإحسان إليهم جزاء إحسانهم لأنفسهم لا له سبحانه ! وهو الغنى عن الجميع !

« وهو العزيز الحكيم » . . القادر على تحقيق وعده ، الحكيم فى الخلق والوعد والتحقيق .

* * *

وآية القدرة ، وآية الحكمة ، وبرهان تلك القضايا السابقة فى سياق السورة . . آية ذلك كله وبرهانه هو هذا الكون الكبير الهائل ، الذى لايدعى أحد من البشر أنه خلقه ، ولا أن أحدا آخر خلقه من دون الله ؟ وهو ضخم هائل دقيق النظام ، متناسق التكوين ، يأخذ بالقلب ، ويبهر اللب ، ويواجه الفطرة مواجهة جاهرة لا تملك الإفلات منها أو الإعراض عنها ؛ ولا تملك إلا التسليم بوحدانية الخالق العظيم ، وضلال من يشرك به آلهة أخرى ظلما للحق الواضح المبين :

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هـذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين » . .

وهذه السماوات ــ بظاهر مدلولها ودون تعمق فى أية بحوث علمية معقدة ــ تواجه النظر والحس ، هائلة فسيحة سابقة . وسواء أكانت السماوات هى هـذه الكواكب والنجوم والمجرات والسدم السابحة فى الفضاء الذى لايعلم سره ومداه إلا الله ؟ أوكانت هى هذه القبة التى تراها العين ولايعرف أحد ماهى على وجه التحقيق . سواء أكانت السماوات هذه أو تلك فهناك خلائق ضخمة هائلة معلقة بغير عمـد تسندها ؟ والناس يرونها حيثما امتدت أبصارهم بالليل والنهار ، ومهما نأت بهم الأبعاد والأسفار على ظهر كوكبهم السيار . ومجرد تأملها بالعين المجردة ، ودون إدراك حقيقة ضخامتها التى تدير الرؤوس ، كاف وحده لرعشة الكيان الإنسانى وارتجافه أمام الضخامة الهائلة التى لانهاية لها ولاحدود . وأمام النظام العجيب الذى يمسك بهذه الخلائق كلها فى مثل هذا التناسق . وأمام هذا الجمال البديع الذى يجتذب العين النظر فلا تمل ، ويجتذب القلب للتأمل فلا يكل ؟ ويستغرق الحس فلا يكاد يؤوب من ذلك التأمل الطويل المديد ! فكيف إذا عرف الإنسان أن كل نقطة من هـذه النقط الصغيرة المضيئة السابحة فى هـذا الفضاء الهائل قد تبلغ كتلتها أضعاف كتلة الأرض التى تقله ملايين المرات ؟

ومن هذه الرحلة الهائلة فى أجواز الفضاء على إيقاع تلك الإشارة السريعة : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » يرتد السياق بالقلب البشرى إلى الأرض فيستقر عليها وما يكاد ! إلى الأرض الصغيرة . الذرة ، التى لا تبلغ أن تكون هباءة فى كتلة الكون الضخمة . يرتد إلى هذه الأرض التى يراها الإنسان فسيحة لا يبلغ أطرافها فرد واحد فى عمره القصير ، ولو قضاه فى رحلة دائمة على هذا الكوكب الصغير ! يرتد بالقلب إلى هذه الأرض ليعيد النظر إليها بحس مفتوح يقظ ، وليجلو عنه ملالة التكرار والألفة لمشاهد هذه الأرض العجيبة :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » . . .

والرواسى الجبال . ويقول علماء طبقات الأرض : إنها تضاريس فى قشرة الكرة الأرضية تنشأ من برودة جوف الأرض وتجمد الغازات فيه ، ونقص حجمها ، فتنكمش القشرة الأرضية وتتجعد ، وتقع فيها المرتفعات والمنخفضات وفق الانكماشات الداخلية فى حجم الغازات حين تبرد ويصغر حجمها هنا وهناك . وسواء أصحت هذه النظرية أم لم تصح ، فهذا كتاب الله يقرر أن وجود هذه الجبال يحفظ توازن الأرض فلا تميد ولا تتأرجح ولا تهتز . وقد تكون نظرية علماء الأرض صحيحة ويكون بروز الجبال على هذا النحو حافظا لتوازن الأرض عند انكماش الغازات وتقبض القشرة الأرضية هنا وهناك ، ويكون نتوء الجبال هنا موازنا لانخفاض فى قشرة الأرض هناك . وكلمة الله هى العليا على كل حال . والله هو أصدق القائلين .

« وبث فيها من كل دابة » . .

وهذه إحدى عجائب الوجود الكبيرة . فوجود الحياة على هذه الأرض سر لا يدعى أحد – حتى اليوم – إدراكه ولا تفسيره . الحياة فى أول صورها . فى الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة . فكيف بضخامة هذا السر والحياة تتنوع وتتركب وتتعدد أنواعها وأجناسها وفصائلها وأنماطها إلى غير حد يعلمه الإنسان أو يحصيه ؟ ومع هذا فإن أكثر الناس يمرون بهذه العجائب مغمضى العيون مطموسى القلوب وكأنما يمرون على شىء عادى لا يستلفت النظر . بينما هم يقفون مدهوشين مذهولين أمام جهاز من صنع الإنسان ساذج صغير بسيط التكوين حين يقاس إلى خلية واحدة من الخلايا الحية ، وتصرفها الدقيق المنظم العجيب . ودعك من الأحياء المعقدة . فضلا على الإنسان ، الذى يحوى جسمه مئات المعامل الكيماوية العجيبة ومئات

المخـازن للإيداع والتوزيع ، ومئات المحطات اللاسلـكية للإرسال والاستقبال ؛ ومئات الوظائف المعقدة التي لايعرف سرها إلا العليم الخبير ! ! !

« وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . .

وإنزال الماء من السماء إحدى العجائب الـكونية التي نمر عليها كذلك غافلين . هذا الماء الذي تفيض به مجاري الأنهار ، والذي تمتلئ به البحيرات ، والذي تتفجر به العيون . . هـذا كله ينزل من السماء وفق نظام دقيق ، مرتبط بنظام السماوات والأرض ، وما بينهما من نسب وأبعاد ، ومن طبيعة وتـكوين . . وإنبات النبات من الأرض بعـد نزول الماء عجيبة أخرى لاينقضي منها العجب . عجيبة الحياة ، وعجيبة التنوع ، وعجيبة الوراثة للخصائص الـكامنة في البذرة الصغيرة ، لتعيد نفسها في النبتة وفي الشجرة الـكبيرة . وإن دراسة توزيع الألوان في زهرة واحدة من نبتة واحـدة لتقود القلب المفتوح إلى أعماق الحياة وأعماق الإيمان بالله مبدع هذه الحياة . .

والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجا : « من كل زوج كريم » وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم بالاستقراء قريبا جدا . فـكل نبات له خلايا تذكير وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة في زهرة واحـدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ، ولاتوجد الثمرة إلا بعد عملية التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الحيوان والإنسان سواء .

ووصف الزوج بأنه « كريم » يلقي ظلا خاصا مقصودا في هذا الموضع ليصبح لائقا بأن يكون « خلق الله » وليرفعه أمام الأنظار مشيرا إليه . . « هـذا خلق الله » وليتحداهم به ويتحدى دعواهم المتهافتة . . « فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ » . وليعقب على هذا التحدي في أنسب وقت : « بل الظالمون في ضلال مبين » . . وأي ضلال وأي ظلم بعد هذا الشرك ، في هذا المعرض الـكوني الباهر الجليل ؟

وعند هذا الإيقاع القوي يختم الجولة الأولى في السورة ذلك الختام المؤثر العميق .

* * *

بعد ذلك يبدأ الجولة الثانية . يبدؤها في نسق جديد . نسق الحكاية والتوجيه غير المباشر .

ويعالج قضية الشكر لله وحده ، وتنزيهه عن الشرك كله ، وقضية الآخرة والعمل والجزاء فى خلال الحكاية .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ؛ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد » .

ولقمان الذى اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد وقضية الآخرة تختلف فى حقيقته الروايات : فمن قائل : إنه كان نبيا ، ومن قائل : إنه كان عبدا صالحا من غير نبوة ـ والأكثرون على هذا القول الثانى ـ ثم يقال : إنه كان عبدا حبشيا ، ويقال : إنه كان نوبيا . كما قيل : إنه كان فى بنى إسرائيل قاضيا من قضاتهم .. وأيا من كان لقمان فقد قرر القرآن أنه رجل آتاه الله الحكمة . الحكمة التى مضمونها ومقتضاها الشكر لله : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » .. وهذا توجيه قرآنى ضمنى إلى شكر الله اقتداء بذلك الرجل الحكيم المختار الذى يعرض قصته وقوله . وإلى جوار هذا التوجيه الضمنى توجيه آخر ، فشكر الله إنما هو رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو ، والله غنى عنه . فالله محمود بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غنى حميد » .. وإذن فأحمق الحمق هو من يخالف عن الحكمة ؛ ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد .

***

ثم تجىء قضية التوحيد فى صورة موعظة من لقمان الحكيم لابنه :

« وإذ قال لقمان لابنه ـ وهو يعظه ـ : يابنى لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم » ..

وإنها لعظة غير متهمة ؛ فما يريد الوالد لولده إلا الخير ؛ وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا . وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ؛ ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهى وفصل علته . ومرة بإنّ واللام .. وهذه هى الحقيقة التى يعرضها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه ، فيجادلونه فيها ؛ ويشكون فى غرضه من وراء عرضها ؛ ويخشون أن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ! فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة بعيدة من كل ظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة

من الناس ؛ يراد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه . . وهـذا هو المؤثر النفسي المقصود .

***

وفي ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد في أسلوب رقيق ؛ ويصور هذه العلاقة صورة موحية فيها انعطاف ورقة . ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على تلك العلاقة الوثيقة :

« ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك ، إلي المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علـم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلي . ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بمـا كنتم تعملون » . .

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الـكريم ، وفي وصايا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا . ومعظمها في حالة الوأد ــ وهي حالة خاصة في ظروف خاصة ــ ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه . فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشىء لضمان امتداد الحياة ، كما يريدها الله ؛ وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال ، في غـير تأفف ولاشكوى ؛ بل في غير انتباه ولاشعور بمـا يبذلان ! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان ! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة ! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المـكررة ليلتفت إلى الجيـل المضحى المدبر المولى الذاهب في أدبار الحياة ، بعد ما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة ! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض مابذلاه ، ولو وقف عمره عليهما . وهذه الصورة الموحية : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين » ترسم ظلال هذا البذل النبيل . والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر ؛ وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق . . روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ــ بإسناده ــ عن بريد عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ هل أديت حقها ؟ قال : « لا . ولا بزفرة واحدة » . هكذا . . ولا بزفرة واحدة . . في حمل أو في وضع ، وهي تحمله وهنا على وهن .

وفى ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول ، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ؛ ويرتب الواجبات ، فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين . . « أن اشكر لى ولوالديك » . . ويربط بهـذه الحقيقة حقيقة الآخرة : « إلىّ المصير » حيث ينفع رصيد الشكر المذخور .

ولـكن رابطة الوالدين بالوليد ـ على كل هذا الانعطاف وكل هذه الـكرامة ـ إنمـا تأتى فى ترتيبها بعد وشيجة العقيدة . فبقية الوصية للإنسان فى علاقته بوالديه : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به عـلم فلا تطعهما » . . فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة ، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة . فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن اقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته ـ وكل ما عدا الله لا ألوهية له فتعلم ! ـ فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول فى الطاعة .

ولـكن الاختلاف فى العقيدة ، والأمر بعدم الطاعة فى خلافها ، لايسقط حق الوالدين فى المعاملة الطيبة والصحبة الـكريمة : « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » فهى رحلة قصيرة على الأرض لاتؤثر فى الحقيقة الأصيلة : « واتبع سبيل من أناب إلىّ » من المؤمنين « ثم إلى مرجعكم » بعد رحلة الأرض المحدودة « فأنبئكم بما كنتم تعملون » ولـكل جزاء ماعمل من كفران أو شكران ، ومن شرك أو توحيد .

روى أن هذه الآية نزلت هى وآية العنكبوت المشابهة وآية الأحقاف كذلك فى سعد ابن أبى وقاص وأمه (كما قلت فى تفسيرها فى الجزء العشرين فى سورة العنـكبوت) . وروى أنها نزلت فى سعد ابن مالك . ورواه الطبرانى فى كتاب العشرة ـ بإسناده ـ عن داوود ابن أبى هند . والقصة فى صحيح مسلم من حـديث سعد ابن أبى وقاص . وهو الأرجح . أما مدلولها فهو عام فى كل حال مماثلة ، وهو يرتب الوشائج والروابط كما يرتب الواجبات والتـكاليف . فتجيء الرابطة فى الله هى الوشيجة الأولى ، ويجيء التـكليف بحق الله هو الواجب الأول . والقرآن الـكريم يقرر هـذه القاعدة ويؤكدها فى كل مناسبة وفى صور شتى لتستقر فى وجدان المؤمن واضحة حاسمة لاشبهة فيها ولا غموض .

* * *

وبعد هذا الاستطراد المعترض فى سياق وصية لقمان لابنه ، تجيء الفقرة التالية فى الوصية ،

لتقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل . ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح ، وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان ، وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف :

« يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أوفي السماوات ، أوفي الأرض ، يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » . .

وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان مايبلغه هذا التعبير المصور . وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع . . [1] حبة من خردل . صغيرة ضائعة لاوزن لها ولا قيمة . « فتكن في صخرة » . . صلبة محشورة فيها لاتظهر ولايتوصل إليها . « أو في السماوات » . . في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . « أو في الأرض » ضائعة في ثراها وحصاها لاتبين . « يأت بها الله » . . فعلمه يلاحقها ، وقدرته لاتفلتها . « إن الله لطيف خبير » . . تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف .

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة ؛ ويتملى علم الله الذي يتابعها . حتى يخشع القلب وينيب ، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب . وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد القرآن إقرارها في القلب . بهذا الأسلوب العجيب .

***

ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه . فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير . بعد الإيمان بالله لاشريك له ؛ واليقين بالآخرة لاريب فيها ؛ والثقة بعدالة الجزاء لايفلت منه مثقال حبة من خردل . . فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله بالصلاة ، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله ، والصبر على تكاليف الدعوة ومتاعبها التي لابد أن تكون :

« يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك . إن ذلك من عزم الأمور » . .

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . .

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم . . توحيد لله ، وشعور برقابته ، وتطلع إلى ماعنده ، وثقة فى عدله ، وخشية من عقابه . ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر ، بالزاد الأصيل . زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة . ثم الصبر على مايصيب الداعية إلى الله ، من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها . ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدى . ومن الابتلاء فى المال والابتلاء فى النفس عند الاقتضاء . . « إن ذلك من عزم الأمور » . . وعزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

* * *

ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها القرآن هنا إلى أدب الداعية إلى الله . فالدعوة إلى الخير لاتجيز التعالى على الناس ؛ والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير . ومن باب أولى يكون التعالى والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل :

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا . إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . .

والصعر داء يصيب الإبل فيلوى أعناقها . والأسلوب القرآنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر . حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس فى تعال واستكبار !

والمشى فى الأرض مرحا هو المشى فى تخايل ونفخة وقلة مبالاة بالناس . وهى حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق . وهى تعبير عن شعور مريض بالذات ، يتنفس فى مشية الخيلاء ! « إن الله لايحب كل مختال فخور » . .

ومع النهى عن مشية المرح ، بيان للمشية المعتدلة القاصدة : « واقصد فى مشيك » . . والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثنى والاختيال . ومن القصد كذلك . لأن المشية القاصدة إلى هدف ، لاتتلكأ ولاتتخايل ولاتتبختر ، إنما تمضى لقصدها فى بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته . ومايزعق أو يغلظ فى الخطاب إلا سيء الأدب ، أوشاك فى قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق !

والأسلوب القرآني يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . . فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية ، مع النفور والبشاعة . ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع ، ثم يحاول . . شيئاً من صوت هذا الحمير . . !

وهكذا تنتهي الجولة الثانية ، بعد ماعالجت القضية الأولى ، بهذا التنويع في العرض ، والتجديد في الأسلوب .

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ؟

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللهِ ـ وَهُوَ مُحْسِنٌ ـ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى ، وَإِلَى ٱللهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ .

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : ٱللهُ . قُلِ : ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، لِلهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ .

« وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ ، إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ ؟ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ ٱللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ

أَللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ ، وَأَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَةِ ٱللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ؟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَٱخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ .

« إِنَّ ٱللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ...

تبدأ الجولة الثالثة بنسق جديد . تبدأ بعرض الدليل الكونى مرتبطا بالناس ، متلبسا بمصالحهم وحياتهم ومعاشهم ، متعلقا بنعم الله عليهم ، نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، تلك التى يستمتعون بها ، ولا يستحيون معها أن يجادلوا فى الله النعم المتفضل الوهاب . . ثم تسير على هذا النسق فى تقرير القضية الأولى التى عالجتها الجولتان الأولى والثانية . .

« ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض ؟ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم : اتبعوا ماأنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا . أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . .

وهذه اللفتة المكررة فى القرآن بشتى الأساليب تبدو جديدة فى كل مرة ، لأن هـذا الكون لايزال يتجدد فى الحس كلما نظر إليه القلب ، وتدبر أسراره ، وتأمل عجائبه التى لاتنفد ؛ ولا يبلغ الإنسان فى عمره المحدود أن يتقصاها ؛ وهى تبدو فى كل نظرة بلون جديد ، وإيقاع جديد .

والسياق يعرضها هنا من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون ! مما يقطع بأن هذا التناسق لايمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لامفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبرة ، التي تنسق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل . . الأرض . . !

إن الأرض كلها لاتبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون . والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض ، وبالقياس إلى مافيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية ، لايعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئا إلى جوارها . ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه . . هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب . وأن يهيء الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته . وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية ، في معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهي أعم من تسخير مافي السماوات ومافي الأرض . فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ؛ وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه هذه نعمة من الله وفضل ؛ وإرسال رسله وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ؛ ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ؛ وكل نفس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه ، وكل صوت تلتقطه أذنه ، وكل خاطر يهجس في ضميره ، وكل فكرة يتدبرها عقله . . . إن هي إلا نعمة ما كان لينالها لولا فضل الله .

وقد سخر الله لهذا المخلوق الإنساني مافي السماوات ، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهدى النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخر له مافي الأرض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبرا . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكنه من كل ماتدخر به الأرض من كنوز . ومنه ماهو ظاهر ومنه ماهو مستتر . ومنه مايعرفه الإنسان ومنه ما لا يدرك إلا آثاره ؛ ومنه مالم يعرفه أصلا من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وإنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لايدرك مداها ، ولايحصي أنماطها . . ومع هذا كله فإن فريقا من الناس لايشكرون ولايذكرون ولا يتدبرون ماحولهم ، ولا يوقنون بالمنعم المتفضل الكريم .

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . .

وتبدو هذه المجادلة مستغربة مستنكرة فى ظل ذلك البرهان الكونى ، وفى جوار هذه النعمة السابغة . ويبدو الجحود والإنكار بشعا شنيعا قبيحا ، تنفر منه الفطرة ، ويقشعر منه الضمير . ويبدو هذا الفريق من الناس الذى يجادل فى حقيقة الله ، وعلاقة الخلق بهذه الحقيقة . . يبدو منحرف الفطرة ولا يستجيب لداعى الكون كله من حوله ؛ جاحداً النعمة لايستحيى أن يجادل فى المنعم بكل هذه النعم السابغة . ويزيد موقفه بشاعة أنه لايرتكن فى هذا الجدال إلى علم ، ولايهتدى بهدى ، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل .

« وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » . .

فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ! التقليد الجامد المتحجر الذى لايقوم على علم ولايعتمد على تفكير . التقليد الذى يريد الإسلام أن يحررهم منه ؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبر ، ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضى المنحرف ، ويتمسكوا بالأغلال والقيود .

إن الإسلام حرية فى الضمير ، وحركة فى الشعور ، وتطلع إلى النور ، ومنهج جديد للحياة طليق من إسار التقليد والجمود . ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من الناس ، ويدفعون عن أرواحهم هداه ، ويجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . ومن ثم يسخر منهم ويتهكم عليهم ، ويشير من طرف خفى إلى عاقبة هذا الموقف المريب :

« أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » . .

فهذا الموقف إنما هو دعوة من الشيطان لهم ، لينتهى بهم إلى عذاب السعير . فهل هم مصرون عليه ولو قادهم إلى ذلك المصير ؟ . . لمسة موقظة ومؤثر مخيف ، بعد ذلك الدليل الكونى العظيم اللطيف .

وبمناسبة ذلك الجدال المتعنت الذى لايستند إلى علم ، ولايهتدى بهدى ، ولايستمد من كتاب . يشير إلى السلوك الواجب تجاه الدليل الكونى والنعمة السابغة :

« ومن يسلم وجهه إلى الله ـ وهو محسن ـ فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور » . .

إنه الاستسلام المطلق لله — مع إحسان العمل والسلوك — الاستسلام بكامل معناه ، والطمأنينة لقدر الله . والانصياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة ، والاسترواح للرعاية ، والرضى الوجدانى ، رضى السكون والارتياح . . كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله . والوجه أكرم وأعلى مافى الإنسان . .

« ومن يسلم وجهه إلى الله — وهو محسن — فقد استمسك بالعروة الوثقى » . . العروة التى لاتنقطع ولا تهن ولا تخون ممسكا بها فى سراء أوضراء ، ولايضل من يشد عليها فى الطريق الوعر والليلة المظلمة ، بين العواصف والأنواء !

هذه العروة الوثقى هى الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه . هى الطمأنينة إلى كل مايأتى به قدر الله فى رضى وفى ثقة وفى قبول ، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها فى مواجهة الأحداث ، وفى الاستعلاء على السراء فلا تبطر ، وعلى الضراء فلا تصغر ؛ وعلى المفاجآت فلا تذهل ؛ وعلى اللأواء فى طريق الإيمان ، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك .

إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار . وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء . وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء . والحاجة إلى السند الذى لايهن ، والحبل الذى لا ينقطع ، حاجة ماسة دائمة . والعروة الوثقى هى عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان . « وإلى الله عاقبة الأمور » . . وإليه المرجع والمصير . فخير أن يسلم الإنسان وجهه إليه منذ البداية ؛ وأن يسلك إليه الطريق على ثقة وهدى ونور . .

« ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » . .

تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن . وهذه نهاية من يكفر ويخدعه متاع الحياة . نهايته فى الدنيا تهوين شأنه على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى المؤمنين . « ومن كفر فلا يحزنك كفره » . . فشأنه أهون من أن يحزنك ، وأصغر من أن يهمك . ونهايته فى الأخرى التهوين من شأنه كذلك . وهو فى قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله ، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه فى صدره من نوايا : « إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم

بذات الصدور » . . ومتاع الحياة الذى يخدعه قليل ، قصير الأجل ، زهيد القيمة .. « نمتعهم قليلا » . . والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعا لا يملك لها ردا : « ثم نضطره إلى عذاب غليظ » . . ووصف العذاب بالغلظ يجسمه — على طريقة القرآن — والتعبير بالاضطرار يلقى ظل الهول الذى يحاول الكافر ألا يواجهه ، مع العجز عن دفعه ، أو التلكؤ دونه ! فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى ، ويصير إلى ربه فى النهاية هادئ النفس مطمئن الضمير ؟

* * *

ثم يقفهم أمام منطق فطرتهم ، حين تواجه الكون ، فلا تجد مناصا من الاعتراف بالحقيقة الكامنة فيها وفى فطرة الكون على السواء ؛ ولكنهم يزيغون عنها وينحرفون ، ويغفلون منطقها القويم :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد » . .

وما يملك الإنسان حين يستفتى فطرته ويعود إلى ضميره أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الناطقة . فهذه السماوات والأرض قائمة . مقدرة أوضاعها وأحجامها وحركاتها وأبعادها ، وخواصها وصفاتها . مقدرة تقديرا يبدو فيه القصد ، كما يبدو فيه التناسق . وهى قبل ذلك خلائق لا يدعى أحد أنه خلقها ؛ ولا يدعى أحد أن خالقا آخر غير الله شارك فيها ؛ ولا يمكن أن توجد هكذا بذاتها . ثم لا يمكن أن تنتظم وتتسق وتقوم وتتناسق بدون تدبير ، وبدون مدبر . والقول بأنها وجدت وقامت تلقائيا أو فلتة أو مصادفة لا يستحق احترام المناقشة . فضلا على أن الفطرة من أعماقها تنكره وترده .

وأولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك ؛ ويقابلون دعوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالجدال العنيف ؛ لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكونى الممثل فى وجود السماوات والأرض ، وقيامهما أمام العين ، لا تحتاجان إلى أكثر من النظر !

ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون فى الجواب : لو سئلوا : « من خلق السماوات والأرض ؟ »

وجوابهم : « الله » . . لذلك يوجه الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله : « قل : الحمد لله » . . الحمد لله على وضوح الحق فى الفطرة ، والحمد الله على هذا الإقرار القهرى أمام الدليل الكونى . والحمد لله على كل حال . ثم يضرب عن الجدل والتعقيب بتعقيب آخر: « بل أكثرهم لايعلمون » .. ومن ثم يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم .

وبمناسبة إقرار فطرتهم بخلق الله للسماوات والأرض يقرر كذلك ملكية الله المطلقة لكل ما فى السماوات والأرض . ماسخره للإنسان ومالم يسخره . وهو مع ذلك الغنى عن كل مافى السماوات والأرض ، المحمود بذاته ولو لم يتوجه إليه الناس بالحمد :

« لله مافى السماوات والأرض . إن الله هو الغنى الحميد » . .

***

والآن تختم هذه الجولة بمشهد كونى يرمز إلى غنى الله الذى لاينفد ، وعلمه الذى لا يحد ، وقدرته على الخلق والتكوين المتجددين بغير مانهاية ، ومشيئته المطلقة التى لانهاية لما تريد :

«ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، مانفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ، ليقرب إلى تصورهم معنى تجدد المشيئة الذى ليس له حدود ؛ والذى لا يكاد تصورهم البشرى يدركه بغير هذا التجسيم والتمثيل .

إن البشر يكتبون علمهم ، ويسجلون قولهم ، ويمضون أوامرهم ، عن طريق كتابتها بأقلام ـ كانت تتخذ من الغاب والبوص ـ يمدونها بمداد من الحبر ونحوه . لا يزيد هذا الحبر على ملء دواة أو ملء زجاجة ! فهاهوذا يمثل لهم أن جميع مافى الأرض من شجر تحول أقلاما . وجميع مافى الأرض من بحر تحول مدادا . بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك . . وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة ، الدالة على علمه ، المعبرة عن مشيئته . . فماذا ؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد . نفدت الأشجار ونفدت البحار . . وكلمات الله باقية لم تنفد ، ولم تأت لها نهاية . . إنه المحدود يواجه غير المحدود . ومهما يبلغ المحدود فسينتهى ؛ ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق . . إن كلمات الله لاتنفد ، لأن علمه لا يحد ، ولأن إرادته لاتكف ، ولأن مشيئته ـ سبحانه ـ ماضية ليس لها حدود ولا قيود .

وتتوارى الأشجار والبحار ، وتنزوى الأحياء والأشياء ؛ وتتوارى الأشكال والأحوال . ويقف القلب البشرى خاشعا أمام جلال الخالق الباقى الذى لايتحول ولايتبدل ولايغيب ؛ وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم : « إن الله عزيز حكيم » . .

وأمام هذا المشهد الخاشع يلقى بالإيقاع الأخير فى هذه الجولة ؛ متخذا من ذلك المشهد دليلا كونيا على يسر الخلق وسهولة البعث :

« ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » . .

والإرادة التى تخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق ، يستوى عندها الواحد والكثير ؛ فهى لاتبذل جهدا محدودا فى خلق كل فرد ، ولا تتكرر الجهد مع كل فرد . وعندئذ يستوى خلق الواحد وخلق الملايين . وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين . إنما هى الكلمة . هى المشيئة : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » . .

ومع القدرة العلم والخبرة مصاحبين للخلق والبعث وما وراءهما من حساب وجزاء دقيق : « إن الله سميع بصير » . .

***

وتأتى الجولة الأخيرة تعالج القضية التى عالجتها الجولات الثلاث من قبل . فتقرر أن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل . وتقرر إخلاص العبادة لله وحده . وتقرر قضية اليوم الآخر الذى لا يجزى فيه والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا .. وتستصحب مع هذه القضايا مؤثرات منوعة جديدة . وتعرضها فى المجال الكونى الفسيح . .

« ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ؟ وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » . .

ومشهد دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول ، مشهد عجيب حقا ، ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس الحساسية تجاهه فلا يلحظون هذه العجيبة ، التى تتكرر بانتظام دقيق ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ؛ ولاتنحرف تلك الدورة الدائبة التى لاتكل ولاتحيد . . والله وحده هو القادر على إنشاء هذا النظام وحفظه ؛ ولايحتاج إدراك هذه الحقيقة إلى أكثر من رؤية تلك الدورة الدائبة التى لاتكل ولاتحيد .

وعلاقة تلك الدورة بالشمس والقمر وجريانهما المنتظم علاقة واضحة . وتسخير الشمس والقمر عجيبة أضخم من عجيبة الليل والنهار ونقصهما وزيادتهما . وما يقدر على هذا التسخير إلا الله القدير الخبير . وهو الذى يقدر ويعلم أمد جريانهما إلى الوقت المعلوم . ومع حقيقة إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ؛ وحقيقة تسخير الشمس والقمر ـ وهما حقيقتان كونيتان بارزتان ـ حقيقة أخرى مثلهما يقررها معهما فى آية واحدة : « وأن الله بما تعملون خبير » . . وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية ، إلى جانب الحقائق الكونية . حقيقة مثلها ، ذات ارتباط بها وثيق :

ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التى تقوم عليها الحقائق جميعا . الحقيقة الأولى التى تنبثق منها الحقائق جميعا . وهى الحقيقة التى تعالجها الجولة ؛ وتقدم لها بهذا الدليل :

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » . .

ذلك . . ذلك النظام الكونى الثابت الدائم المنسق الدقيق . . ذلك النظام قائم بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل . قائم بهذه الحقيقة الكبرى التى تعتمد عليها كل حقيقة ، والتى يقوم بها هذا الوجود . فكون الله هو الحق . سبحانه . هو الذى يقيم هذا الكون ، وهو الذى يحفظه ، وهو الذى يدبره ، وهو الذى يضمن له الثبات والاستقرار والتماسك والتناسق ، ماشاء الله له أن يكون . .

« ذلك بأن الله هو الحق » . . كل شىء غيره يتبدل . وكل شىء غيره يتحول . وكل شىء غيره تلحقه الزيادة والنقصان ؛ وتتعاوره القوة والضعف ، والازدهار والذبول ، والإقبال والإدبار . وكل شىء غيره يوجد بعد أن لم يكن ، ويزول بعد أن يكون . وهو وحده ـ سبحانه ـ الدائم الباقى الذى لايتغير ولايتبدل ولا يحول ولايزول . .

ثم تبقى فى النفس بقية من قوله تعالى : «ذلك بأن الله هو الحق » . : بقية لاتنقلها الألفاظ ولا يستقل بها التعبير البشرى الذى أملك . بقية يتمثلها القلب ويستشعرها الضمير ؛ ويحسها الكيان الإنسانى كله ويقصر عنها التعبير ! . . وكذلك : « وأن الله هو العلى الكبير » . . الذى ليس غيره « علىّ » ولا « كبير » . ! ! ! ترى قلت شيئا يفصح عما يخالج كيانى كله أمام التعبير القرآنى العجيب ؟ أحس أن كل تعبير بشرى عن مثل هذه الحقائق العليا ينقص

منها ولا تزيد ؛ وأن التعبير القرآني ـ كما هو ـ هو وحده التعبير الموحى الفريد !!!

***

ويعقب السياق على ذلك المشهد الكوني ، وهذه اللمسة الوجدانية ، بمشهد آخر من مألوف حياة البشر . مشهد الفلك تجرى في البحر بفضل الله . ويقفهم في هذا المشهد أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر وخطره ، مجردة من القوة والبأس والبطر والغرور :

« ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . .

والفلك تجرى في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء . . فخلقة هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجرى في البحر ولا تغطس أو تقف . ولو اختلت تلك الخواص أى اختلال ماجرت الفلك في البحر . لو اختلت كثافة الماء أو كثافة مادة الفلك . لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر . لو اختلت التيارات المائية والهوائية . لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذى يبقى الماء ماء ، ويبقى تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة . . لو اختلت نسبة واحدة أى اختلال ماجرت الفلك في الماء ، وبعد ذلك كله يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميها فوق ثبج الأمواج وسط العواصف والأنواء ، حيث لاعاصم لها إلا الله . فهى تجرى بنعمة الله وفضله على كل حال . ثم هى تجرى حاملة نعمة الله وفضله كذلك . والتعبير يشمل هذا المعنى وذاك : « ليريكم من آياته » . . وهى معروضة للرؤية ، يراها من يريد أن يرى ؛ وليس بها من غموض ولا اختفاء . . « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . صبار في الضراء ، شكور في السراء ؛ وهما الحالتان اللتان تتعاوران الإنسان .

ولكن الناس لا يصبرون ، ولا يشكرون ، إنما يصيبهم الضر فيجأرون ، وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلا القليل :

« وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » . .

فأمام مثل هذا الخطر ، والموج يغشاهم كالظلل والفلك كالريشة الحائرة في الخضم الهائل . . تتعرى النفوس من القوة الخادعة ، وتتجرد من القدرة الموهومة ، التي تحجب عنها في ساعات الرخاء حقيقة فطرتها ، وتقطع مابين هذه الفطرة وخالقها . حتى إذا سقطت

هـذه الحوائل ، وتعرت الفطرة من كل ستار ، استقامت إلى ربهـا ، واتجهت إلى بارئها ، وأخلصت له الدين ، ونفت كل شريك ، ونبذت كل دخيل . ودعوا الله مخلصين له الدين .

« فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد » . . .

لا يجرفه الأمن والرخاء إلى النسيان والاستهتار ؛ إنما يظل ذاكرا شاكرا ، وإن لم يوف حق الله فى الذكر والشكر ؛ فأقصى ما يبلغه ذاكر شاكر أن يكون مقتصدا فى الأداء .

ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » . . والختار الشديد الغدر ، والكفور الشديد الكفر ؛ وهذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هـذه المشاهد الكونية ، ومنطق الفطرة الخالص الواضح المبين .

***

وبمناسبة هول البحر وخطره الذى يعرى النفوس من غرور القوة والعلم والقدرة ، ويسقط عنها هـذه الحواجز الباطلة ، ويقفها وجها لوجه أمام منطق الفطرة . . بمناسبة هذا الهول يذكرهم بالهول الأكبر ، الذى يبدو هول البحر فى ظله صغيرا هزيلا . هول اليوم الذى يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » . .

إن الهول هنا هول نفسى ، يقاس بمداه فى المشاعر والقلوب [١] . وما تتقطع أواصر القربى والدم ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد ، وبين المولود والوالد . وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزى أحد عن أحد ، ولا ينفع أحدا إلا عمله وكسبه . ما يكون هـذا كله إلا لهول لا نظير له فى مألوف الناس . . فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجىء فى موضعها الذى فيه تستجاب ؛ وقضية الآخرة تعرض فى ظلال هـذا الهول الغامر فتسمع لها القلوب .

---

(١) يراجع فصل العالم الآخر فى القرآن « فى كتاب : مشاهد القيامة فى القرآن » ص ٤٢ ــ ٤٤ .

« إن وعد الله حق » . . فلا يخلف ولا يتخلف ؛ ولا مفر من مواجهة هـذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذى لا يغنى فيـه والد عن ولد ولا مولود عن والد .

« فلا تغرنـكم الحياة الدنيا » . . وما فيهـا من متاع ولهو ومشغلة ؛ فهى مهلة محدودة وهى ابتلاء واستحقاق للجزاء .

« ولا يغرنـكم بالله الغرور » . . من متاع يُلهى ، أو شغل يُنسى ، أو شيطان يوسوس فى الصدور . والشياطين كثير . الغرور بالمال شيطان . والغرور بالعـلم شيطان . والغرور بالعمر شيطان . والغرور بالقوة شيطان . والغرور بالسلطان شيطان . ودفعة الهوى شيطان . ونزوة الشهوة شيطان . وتقوى الله وتصور الآخرة هما العاصم من كل غرور !

* * *

وفى ختام الجولة الرابعة وختام السورة ، وفى ظل هـذا المشهد المرهوب يجىء الإيقاع الأخـير فى السورة قويا عميقا مرهوبا ، يصور علم الله الشامل وقصور الإنسان المحجوب عن الغيوب ، ويقرر القضية التى تعالجها السورة بكل أجزائها ، ويخرج هـذا كله فى مشهد من مشاهد التصوير القرآنى العجيب .

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تـكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » ..

والله ــ سبحانه ــ قد جعل الساعة غيبا لا يعلمه سواه ؛ ليبقى الناس على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها ، وهم لا يعلمون متى تأتى ، فقد تأتيهم بغتة فى أية لحظة ، ولا مجال للتأجيل فى اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد .

والله ينزل الغيث وفق حكمته ، بالقدر الذى يريده ؛ وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله ؛ ولـكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التى تنشئه . والنص يقرر أن الله هو الذى ينزل الغيث ، لأنه سبحانه هو المنشىء للأسباب الـكونيـة التى تـكونه والتى تنظمه . فاختصاص الله فى الغيث هو اختصاص القدرة . كما هو ظاهر من النص . وقد وهم الذين عدوه فى الغيبيات المختصة بعلم الله . وإن كان علم الله وحده هو العلم فى كل أمر وشأن . فهو وحده العلم الصحيح الـكامل الشامل الدائم الذى لا يلحق به زيادة ولا نقصان .

« ويعلم ما فى الأرحام » . . اختصاص بالعلم كالاختصاص فى أمر « الساعة » فهو سبحانه

الذى يعلم وحده . علم يقين. ما ذا فى الأرحام فى كل لحظة وفى كل طور . من فيض وغيض . ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم . ونوع هذا الحمل ذكرا أم أنثى ، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئا فى اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة . وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته . . . فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى .

« وما تدرى نفس ما ذا تكسب غدا » . . ماذا تكسب من خير وشر ، ومن نفع وضر ، ومن يسر وعسر ، ومن صحة ومرض ، ومن طاعة ومعصية . فالكسب أعم من الربح المالى وما فى معناه ؛ وهو كل ما تصيبه النفس فى الغداة . وهو غيب مغلق ، عليه الأستار . والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب ، لا تملك أن ترى شيئا مما وراء الستار .

وكذلك : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذى لا تنفذ منه الأسماع والأبصار .

وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة ، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود ، وعجزها الواضح ، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة . وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ؛ وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس . ولو علموا كل شىء آخر فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ما ذا يكون غدا ! بل ماذا يكون اللحظة التالية . وعندئذ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله .

والسياق القرآنى يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير فى القلب البشرى فى رقعة فسيحة هائلة . .

رقعة فسيحة فى الزمان والمكان ، وفى الحاضر الواقع ، والمستقبل المنظور ، والغيب السحيق . وفى خواطر النفس ، ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما فى الأرحام الخافى عن العيان . والكسب فى الغد ، وهو قريب فى الزمان ومغيب فى المجهول . وموضع الموت والدفن ، وهو مبعد فى الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء . ولكن اللمسات التصويرية العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها تدق فى أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ؛ وتقف بها جميعا أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سم الخياط لاستوى القريب خلفها بالبعيد ، ولانكشف القاصى منها والدان [1] . . ولكنها تظل مغلقة فى وجه الإنسان ،

(١) مقتطف من كتاب : التصوير الفنى فى القرآن . فصل : التناسق الفنى .

لأنها فوق مقدور الإنسان ، ووراء علم الإنسان . تبقى خالصة لله لا يعلمها غيره ، إلا بإذن منه وإلا بمقدار . « إن الله عليم خبير » وليس غيره بالعليم ولا بالخبير . .

* * *

وهكذا تنتهى السورة ، كما لو كانت رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد . ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة ، الشاملة الشاسعة ، وئيد الخطى لكثرة ما طوّف ، ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبر وما تفكر ، فى تلك العوالم والمشاهد والحيوات !

وهى بعد سورة لا تتجاوز الأربع والثلاثين آية . فتبارك الله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن شفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . .

سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .

« وَقَالُوا : أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

« وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَٰكِنْ حَقَّ

ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

« وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ؟ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

« أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَ فَلَا يَسْمَعُونَ ؟ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ؟ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ » .

هـذه السورة المكية نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآنى للقلب البشرى بالعقيدة الضخمة التى جاء القرآن ليوقظها فى الفطر ، ويركزها فى القلوب : عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد ، خالق الكون والناس ، ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله . والتصديق برسالة محمد — صلى الله عليـه وسلم — الموحى إليه بهـذا القرآن لهداية البشر إلى الله . والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء .

هـذه هى القضية التى تعالجها السورة ؛ وهى القضية التى تعالجها سائر السور المكية . كل منها تعالجها بأسلوب خاص ، ومؤثرات خاصة ؛ تلتقى كلها فى أنها تخاطب القلب البشرى خطاب العليم الخبير ، المطلع على أسرار هـذه القلوب وخفاياها ، ومنحنياتهـا ودروبها ، العارف بطبيعتها وتكوينها ، وما يستكن فيها من مشاعر ، وما يعتريها من تأثرات واستجابات فى جميع الأحوال والظروف .

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غـير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة . فهى تعرضها فى آياتها الأولى ؛ ثم تمضى بقيتها تقـدم مؤثرات موقظة للقلب ، منيرة للروح ، مثيرة للتأمل والتـدبر ؛ كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة فى صفحة الكون ومشاهده ؛ وفى نشأة الإنسان وأطواره ؛ وفى مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة ؛ وفى مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها !

كذلك ترسم السورة صورا للنفوس المؤمنة فى خشوعها وتطلعها إلى ربها . والنفوس الجاحدة فى عنادها ولجاجها ؛ وتعرض صورا للجزاء الذى يتلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده كل قارىء لهذا القرآن .

وفى كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشرى بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالإطماع ، وتارة بالإقناع . . ثم تدعه فى النهاية تحت هـذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور . .

ويمضى سياق السورة فى عرض تلك القضية فى أربعة مقاطع أو خمسة متلاحقة متصلة : يبدأ بالأحرف المقطعة « ألف . لام . ميم » منبها بها إلى تنزيل الكتاب من جنس هـذه الأحرف . ونفى الريب عن تنزيله والوحى به : « من رب العالمـين » . . ويسأل سـؤال استنكار عما إذا كانوا يقولون : افتراه . ويؤكد أنه الحق من ربه لينذر قومـه « لعلهم يهتدون » . .

وهذه هى القضية الأولى من قضايا العقيدة : قضية الوحى وصدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التبليغ عن رب العالمين .

ثم يعرض قضية الألوهية وصفتها فى صفحة الوجود : فى خلق السماوات والأرض ومابينهما ، وفى الهيمنة على الكون وتدبير الأمر فى السماوات والأرض ، ورفع الأمر إليه فى اليوم الآخر . . ثم فى نشأة الإنسان وأطواره وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك . والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون .

وهذه هى القضية الثانية : قضية الألوهية وصفتها : صفة الخلق ، وصفة التدبير ، وصفة الإحسان ، وصفة الإنعام ، وصفة العلم . وصفة الرحمة . . وكلها مذكورة فى سياق آيات الخلق والتكوين .

ثم يعرض قضية البعث ، وشكهم فيه بعد تفرق ذراتهم فى التراب : « وقالوا : أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ؟ » ويرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين .

وهذه هى القضية الثالثة : قضية البعث والمصير .

ومن ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة : « إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » يعلنون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذى جاءتهم به الدعوة . ويقولون الكلمة التى لوقالوها فى الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ؛ ولكنها فى موقفهم ذاك لاتجدى شيئا ولاتفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم ـ قبل فوات الأوان ـ لقول الكلمة التى سيقولونها فى الموقف العصيب . فيقولوها الآن فى وقتها المطلوب .

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب يعرض مشهد المؤمنين فى هذه الأرض : إذا ذكروا بآيات ربهم : « خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » . . وهى صورة موحية شفيفة ترف حولها القلوب . يعرض إلى جوارها ما أعده الله لهذه النفوس الخاشعة الخائفة الطامعة من نعيم يعلو على تصور البشر الفانين : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . . ويعقب عليه بمشهد سريع لمصائر المؤمنين والفاسقين فى جنة المأوى وفى نار الجحيم . وبتهديد المجرمين بالانتقام منهم فى الأرض أيضا قبل أن يلاقوا مصيرهم الأليم .

ثم ترد إشارة إلى موسى ـ عليه السلام ـ ووحدة رسالته ورسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهتدين من قومه ، وصبرهم على الدعوة ، وجزائهم على هذا الصبر بأن جعلهم الله

أئمة . وفى هـذه الإشارة إيحاء بالصبر على مايلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيد ومن تـكذيب .

وتعقب هذه الإشارة جولة فى مصارع الغابرين من القرون ، وهم يمشون فى مساكنهم غافلين . . ثم جولة فى الأرض الميتة ينزل عليها المـاء بالحياة والنمـاء ؛ فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة فى سطور .

وتختم السورة بحكاية قولهم : « متى هذا الفتح ؟ » وهم يتساءلون فى شك عن يوم الفتح الذى يتحقق فيه الوعيد . والجواب بالتخويف من هـذا اليوم والتهديد . وتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليعرض عنهم ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

والآن نأخذ فى عرض السورة بالتفصيل :

***

« الم . تنزيل الـكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون : افتراه ؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » . .

« ألف . لام . ميم » . . هذه الأحرف التى يعرفها العرب المخاطبون بهذا الـكتاب ؛ ويعرفون ما يملـكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين ما يملـكون أن يصوغوه منها وبين هذا القرآن ؛ وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمـارس التعبير باللفظ عن المعانى والأفـكار . كما يدرك أن فى النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصرا مستكنا ، يجعل لهـا سلطانا وإيقاعا فى القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقوله البشر فى جميع الأعصار . وهى ظاهرة ملحوظة لاسبيل إلى الجدال فيها ، لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لهـا ، من بين سائر القول ، ولو لم يعلم سلفا أن هـذا قرآن ! والتجارب الـكثيرة تؤكد هذه الظاهرة فى شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هـذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر فى سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة ، لاتبلغ إليها صنعة البشر فى أصغر الأشياء . وإن توزيع الألوان فى زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين فى جميع العصور . . وكذلك صنع الله فى القرآن وصنع البشر فيما يصوغون من هـذه الحروف من كلام !

ألف . لام . ميم . . « تنزيل الـكتاب — لاريب فيه — من رب العالمـين » . . قضية مقطوع بها ، لاسبيل إلى الشك فيها . قضية تنزيل الـكتاب من رب العالمين . . ويعجل السياق

بنفى الريب فى منتصف الآية ، بين المبتدأ فيها والخبر ، لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة فى النص . والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجها لوجه أمام واقع الأمر ، الذى لا سبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التى يعرفون ؛ ونمطه هو هذا النمط المعجز الذى لا يمارون فى إعجازه ، أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التى يقر بها الجميع .

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز فى هذا القرآن ؛ وتشى بالقوة الخفية المودعة فى هذا الكلام . وإن الكيان الإنسانى ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتقت حساسية التلقى والاستجابة . وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحا كلما اتسعت ثقافة الإنسان ، ومعرفته بهذا الكون ومافيه ومن فيه . فليست هى مجرد وهلة تأثرية وجدانية غامضة . فهى متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطابا مباشرا . وهى متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب ، والعقل المثقف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات . وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، مادامت الفطرة مستقيمة لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء [1] مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين .

« أم يقولون : افتراه ؟ » . .

ولقد قالوها فيما زعموه متعنتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول فى صيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلا : « أم يقولون : افتراه ؟ » . . هذه القولة التى لا ينبغى أن تقال ؛ فتاريخ محمد — صلى الله عليه وسلم — فيهم ينفى هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلا ، ولاتدع مجالا للريب والتشكك :

« بل هو الحق من ربك » . .

الحق . . بما فى طبيعته من صدق ومطابقة لما فى الفطرة من الحق الأزلى ؛ وما فى طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر فى كيانه ، الملحوظ فى تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام ، وشموله وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف هذه الأجزاء وتلاقيها .

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ص ١٣ — ١٦ جزء ١٩ من الظلال .

الحق .. بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ؛ وكأنما هو الصورة اللفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة في هذا الوجود .

الحق .. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذى يعيشون فيه ونواميسه الكلية ، ومايعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم فى صداقة مع كل ماحولهم من هذا الكون الكبير .

الحق .. الذى تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه ، فى يسر وسهولة ، وفى غير مشقة ولا عنت . لأنه يلتقى بما فيها من حق أزلى قديم .

الحق .. الذى لايتفرق ولايتعارض وهو يرسم منهاج الحياة البشرية كاملا ؛ ويلحظ فى هذا المنهاج كل قواها وكل طاقاتها ، وكل نزعاتها وكل حاجاتها ، وكل ما يعتورها من مرض أوضعف أونقص أو آفة ، تدرك النفوس وتفسد القلوب .

الحق .. الذى لايظلم أحدا فى دنيا أو آخرة . ولايظلم قوة فى نفس ولاطاقة. ولايظلم فكرة فى القلب أو حركة فى الحياة ، فيكفها عن الوجود والنشاط ، ما دامت متفقة مع الحق الكبير الأصيل فى صلب الوجود .

« بل هو الحق من ربك » .. فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك . وهو رب العالمين كما قال فى الآية السابقة ؛ إنما هذه الإضافة هنا للتكريم . تكريم الرسول الذى يتهمونه بالافتراء . وإلقاء ظلال القربى بينه وبين ربه رب العالمين . ردا على الاتهام الأثيم . وتقريرا للصلة الوثيقة التى تحمل مع معنى التكريم معنى وثاقة المصدر وصحة التلقى . وأمانة النقل والتبليغ .

« لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلهم يهتدون » ..

والعرب الذين أرسل إليهم محمد — صلى الله عليه وسلم — لم يرسل إليهم أحد قبله ؛ ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل — عليه السلام — جد العرب الأول وبين محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد نزل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به . « لعلهم يهتدون » فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذى يخاطب الفطر والقلوب .

* * *

هؤلاء القوم الذين نزل الله الكتاب لينذرهم به رسوله — صلى الله عليه وسلم — كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى . فهنا يبدأ ببيان صفة الله التى يعرفون بها حق ألوهيته سبحانه ،

ويميزون بها بين من يستحق هذا الوصف العظيم : « الله » ومن لايستحقونه ولايجوز أن يقرنوا إلى مقام الله رب العالمين :

« الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع . أفلا تتذكرون ؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا ماتشكرون » . .

ذلك هو الله ، وهذه هى آثار ألوهيته ودلائلها . هذه هى فى صفحة الكون المنظور . وفى ضمير الغيب المترامى وراء إدراك البشر المحدود . وفى نشأة الإنسان وأطواره التى يعرفها الناس ، والتى يطلعهم عليها الله فى كتابه الحق المبين .

« الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . .

والسماوات والأرض وما بينهما هى هذه الخلائق الهائلة التى نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير . . هى هذا الملكوت الطويل العريض الضخم المترامى الأطراف ، الذى يقف الإنسان أمامه مبهورا مدهوشا متحيرا فى الصنعة المتقنة الجميلة المنسقة الدقيقة التنظيم . . هى هذا الخلق الذى يجمع إلى العظمة الباهرة ، الجمال الأخاذ . الجمال الحقيقى الكامل ، الذى لايرى فيه البصر ، ولا الحس ، ولاالقلب ، موضعا للنقص ؛ ولا يمل المتأمل التطلع إليه مهما طالت وقفته ؛ ولايذهب التكرار والألفة بجاذبيته . المتجددة العجيبة . . ثم هى هذه الخلائق المنوعة ، المتعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والخواص والمظاهر والاستعدادات والوظائف ، الخاضعة كلها لناموس واحد ، المتناسقة كلها فى نشاط واحد ، المتجهة كلها إلى مصدر واحد تتلقى منه التوجيه والتدبير ، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام .

والله . . هو الذى خلق السماوات والأرض ومابينهما . . فهو الحقيق ــ سبحانه ــ بهذا الوصف العظيم . .

« خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . .

وليست هى قطعا من أيام هذه الأرض التى نعرفها . فأيام هذه الأرض مقياس زمنى ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض

الصغيرة الضئيلة ، التي لاتزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب ! وقد وجد هذا المقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس . وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة !

أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن فعلمها عند الله ؛ ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها . فهي من أيام الله التي يقول عنها : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . .

تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ماهي عليه . أو ستة مراحل في النشأة والتكوين . أو ستة أدهار لايعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله . . وهي على أية حال شيء آخر غير الأيام الأرضية التي تعارف عليها أبناء الفناء . فلنأخذها كما هي غيبا من غيب الله لاسبيل إلى معرفته على وجه التحديد . إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير في الخلق ، وفق حكمة الله وعلمه . وإحسانه لكل شيء خلقه في الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم .

« ثم استوى على العرش » . .

والاستواء على العرش رمز لاستعلائه على الخلق كله . أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شيء عنه ، ولابد من الوقوف عند لفظه . وليس كذلك الاستواء . فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء . ولفظ . . ثم ، لايمكن قطعا أن يكون للترتيب الزمني ، لأن الله سبحانه ـ لاتتغير عليه الأحوال . ولا يكون في حال أو وضع ـ سبحانه ـ ثم يكون في حال أو وضع تال . إنما هو الترتيب المعنوي . فالاستعلاء درجة فوق الخلق ، يعبر عنها هذا التعبير .

وفي ظلال الاستعلاء المطلق يلمس قلوبهم بالحقيقة التي تمسهم :

« مالكم من دونه من ولي ولاشفيع » . .

وأين ؟ ومن ؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسماوات والأرض وما بينهما ؟ وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما ؟ فأين هو الولي من دونه ؟ وأين هو الشفيع الخارج على سلطانه ؟

« أفلا تتذكرون ؟ » . .

وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله ، والاتجاه إليه وحده دون سواه .

ومع الخلق والاستعلاء . . التدبير والتقدير . . في الدنيا والآخرة . . فكل أمر يدبر

فى السماوات والأرض وما بينهما يرفع إليه سبحانه فى يوم القيامة ، ويرجع إليـه مآله فى ذلك اليوم الطويل :

« يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة ممـا تعدون » . .

والتعبير يرسم مجال التدبير منظورا واسعا شاملا : « من السماء إلى الأرض » ليلقى على الحس البشرى الظلال التى يطيقها ويملك تصورها ويخشع لهـا . وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض . ولـكن الحس البشرى حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح ، ومتابعة التدبير شاملا لهذه الرقعة الهائلة التى لا يعرف حتى الأرقام التى تحدد مداها !

ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه . يرتفع إليه سبحانه فى علاه فى اليوم الذى قدره لعرض مآلات الأعمـال والأقوال ، والأشياء والأحياء « فى يوم كان مقداره ألف سنة ممـا تعدون » . . وليس شىء من هذا كله متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا ، إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم . . يرتفع . فـكل شىء وكل أمر وكل تدبير وكل مآل هو دون مقام الله ذى الجلال ، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء .

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » . .

ذلك . . الذى خلق السماوات والأرض . والذى استوى على العرش . والذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . . « ذلك عالم الغيب والشهادة » . . المطلع على مايغيب وما يحضر . وهو الخالق المسيطر المدبر . « وهو العزيز الرحيم » . . القوى القادر على ما يريد . الرحيم فى إرادته وتدبيره للمخاليق .

« الذى أحسن كل شىء خلقه » . .

. . واللهم إن هذا هو الحق الذى تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل . الحق المتمثل فى أشكال الأشياء ، ووظائفها . وفى طبيعتها منفردة وفى تناسقها مجتمعة . وفى هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها . وفى كل مايتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد .

سبحانه ! هذه صنعته فى كل شىء . هذه يده ظاهرة الآثار فى الخلائق . هذا كل شىء خلقه يتجلى فيه الإحسان والإتقان ؛ فلا تجاوز ولا قصور ، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط ، فى حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة . كل شىء مقدر لا يزيد عن

حد التناسق الجميل الدقيق ولاينقص . ولا يتقدم عن موعـده ولايتأخر . ولايتجاوز مداه ولايقصر . . كل شىء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام . ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام . كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان . . وكذلك الأعمال والأطوار والحركات والأحداث . وكلها من خلق الله . مقدرة تقديرا دقيقا فىموعدها وفى مجالها وفى مآلها ، وفق الخطة الشاملة لسير هذا الوجود من الأزل إلى الأبد مع تدبير الله .

كل شىء ، وكل خلق ، مصنوع ليؤدى دوره المقسوم له فى رواية الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعدادا دقيقا ، مزود بالاستعدادات والخصائص التى تؤهله لدوره تمـام التأهيل . هذه الخلية الواحدة المجهزة بشتى الوظائف . هذه الدودة السابحة المجهزة بالأرجل أو الشعيرات وبالملاسة والمرونة والقدرة على شق طريقها كأحسن ما يكون . هذه السمكة . هذا الطائر . هذه الزاحفة . هذا الحيوان . . ثم هـذا الإنسان . . وهذا الـكوكب السيار وهذا النجم الثابت . وهذه الأفلاك والعوالم ؛ وهـذه الدورات المنتظمة الدقيقة المنسقة العجيبة المضبوطة التوقيت والحركة على الدوام . . كل شىء . كل شىء . حيثما امتد البصر متقن الصنع . بديع التكوين . يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

والعين المفتوحة والحس المتوفز والقلب البصير ، ترى الحسن والإحسان فى هذا الوجود بتجمعه ؛ وتراه فى كل أجزائه وأفراده . والتأمل فى خلق الله حيثما اتجـه النظر أو القلب أو الذهن ، يمنح الإنسان رصيدا ضخما من ذخائر الحسن والجمـال ، ومن إيقاعات التناسق والـكمال ، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى مافى ثمارها من مذاق ؛ وتسكبها فى القلب البشرى؛ وهو يعيش فى هذا المهرجان الإلهى الجميل البديع المتقن ، يتملى آيات الإحسان والإتقان فى كل مايراه ومايسمعه ومايدركه فى رحلته على هذا الـكوكب . ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقى المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة .

ولايدرك القلب شيئا من هذا النعيم فى رحلته الأرضية إلا حين يستيقظ من همود العادة ، ومن ملالة الألفة . وإلا حين يتسمع لإيقاعات الـكون من حوله ، ويتطلع إلى إيحاءاته . وإلا حين يبصر بنور الله فتتكشف له الأشياء عن جواهرها الجميلة كما خرجت من يد الله المبدعة . وإلا حـين يتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شىء من بدائعه ؛ فيحس بالصلة بين المبدع وما أبدع ؛ فيزيد شعوره بجمال مايرى وما يحس ، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله .

إن هـذا الوجود جميل . وإن جماله لاينفد . وإن الإنسان ليرتقى فى إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ماحدود . قدر مايريد . وفق مايريده له مبدع الوجود .

وإن عنصر الجمال لمقصود قصدا فى هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة فى كل شىء ، يصل إلى حد الجمـال . وكمال التكوين يتجلى فى صورة جميلة فى كل عضو ، وفى كل خلق . . انظر . . هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية فى الوجود كله . هذا التناسق الذى لاعوج فيه ولا فطور !

إنها رحلة ممتعة فى هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ؛ يلفتنا القرآن إليها لنتملاها، ونستمتع بها ؛ وهو يقول : « الذى أحسن كل شىء خلقه » . . فيوقظ القلب لتتبع مواضع الحسن والجمال فى هذا الوجود الكبير . .

« الذى أحسن كل شىء خلقه » . . « وبدأ خلق الإنسان من طين » . .

ومن إحسانه فى الخلق بدء خلق هـذا الإنسان من طين . فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بداءة ، وكان فى المرحلة الأولى . ولم يحدد عدد الأطوار التى تلت مرحلة الطين ولامداها ولازمنها ، فالباب فيها مفتوح لأى تحقيق صحيح . وبخاصة حين يضم هـذا النص إلى النص الآخر الذى فى سورة « المؤمنون » . . « خلق الإنسان من سلالة من طين » . . فيمكن أن يفهم منـه أنه إشارة إلى تسلسل فى مراحل النشأة الإنسانية يرجع أصلا إلى مرحلة الطين . .

وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى فى هـذه الأرض ؛ وأنهـا نشأت من الطين . وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله . وهذا هو السر الذى لم يصل إليه أحد . لاماهو . ولا كيف كان . ومن الخلية الحية نشأ الإنسان . ولايذكر القرآن كيف تم هـذا ، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار . فالأمر فى تحقيق هـذا التسلسل متروك لأى بحث صحيح ؛ وليس فى هذا البحث مايصادم النص القرآنى القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كانت من الطين . وهـذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول مايسفر عنه أى تحقيق صحيح .

غير أنه يحسن — بهذه المناسبة — تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة : بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان فى أطوار متوالية ؛ وأن هناك حلقات نشوء

وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيوانا فوق القردة العليا ودون الإنسان . . أن هذه النظرية غير صحيحة فى هذه النقطة وأن كشف عوامل الوراثة ـ التى لم يكن دارون قد عرفها ـ تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضربا من المستحيل . فهناك عوامل وراثة كامنة فى خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه ؛ وتحتم أن يظل فى دائرة النوع الذى نشأ منـه ، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جـديد . فالقط أصله قط وسيظل قطا على توالى القرون . والـكلب كذلك . والثور . والحصـان . والقرد . والإنسان . وكل ما يمكن أن يقع ـ حسب نظريات الوراثة ـ هو الارتقاء فى حدود النوع نفسه . دون الانتقال إلى نوع آخر . وهذا يبطل القسم الرئيسى فى نظرية دارون التى فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض فى يوم من الأيام [1] !

ثم نعود إلى ظلال القرآن !

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » . .

من ماء النطفة الذى هو المرحلة الأولى فى تطور الجنين : من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كمال التكوين الجنينى ، فى هـذه السلالة التى تبدأ بالمـاء المهين . وإنها لرحلة هائلة حين ينظر إلى طبيعة التطورات التى تمر بها تلك النقطة الضائعة من ذلك المـاء المهين . حتى تصل إلى الإنسان المعقد البديع التـكوين ! وإنها لمسافة شاسعة ضخمة بين الطور الأول والطور الأخير .

وذلك مايعبر عنه القرآن فى آية واحدة تصور هذه الرحلة المديدة :

« ثم سواه ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل لـكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

يا ألله . ما أضخم الرحلة ! وما أبعد الشقة ! وما أعظم المعجزة التى يمر عليها الناس غافلين !

أين تلك النقطة الصغيرة المهينة من ذلك الإنسان الذى تصير إليـه فى النهاية ، لولا أنها يد الله المبدعة التى تصنع هذه الخارقة . والتى تهدى تلك النقطة الصغيرة الضعيفة إلى اتخاذ طريقها فى النمو والتطور والتحول من هيئتها الساذجة إلى ذلك الخلق المعقد المركب العجيب ؟

هذا الانقسام فى تلك الخلية الواحدة والتكاثر . ثم التنويع فى أصناف الخـلايا المتعددة ذات الطبيعة المختلفة ، والوظيفة المختلفة ؛ التى تتـكاثر هى بدورها لتقوم كل مجموعة منهـا بتكوين عضو خاص ذى وظيفة خاصة . وهذا العضو الذى تـكونه خلايا معينة من نوع خاص ،

(١) يراجع كتاب العلم يدعو إلى الإيمان . وص ٥٠ جزء ١٩ من الظلال .

يحتوى بدوره على أجزاء ذات وظائف خاصة وطبيعة خاصة ، تكونها خلايا أكثر تخصصا فى داخل العضو الواحد . . هذا الانقسام والتكاثر مع هـذا التنويع كيف يتم فى الخلية الأولى وهى خلية واحدة ؟ وأين كانت تكمن تلك الخصائص كلها التى تظهر فيا بعد فى كل مجموعة من الخلايا المتخصصة الناشئة من تلك الخلية الأولى ؟ ثم أين كانت تكمن الخصائص المميزة لجنين الإنسان من سائر الأجنة ؟ ثم المميزة لكل جنين إنسانى من سائر الأجنة الإنسانية ؟ ثم الحافظة لكل مايظهر بعد ذلك فى الجنين من استعدادات خاصة ، ووظائف معينة ، وسمات وشيات طوال حياته ؟ !

ومن ذا الذى كان يمكن أن يتصور إمكان وقوع هذه الخارقة العجيبة لولا أنها وقعت فعلا وتكرر وقوعها ؟

إنها يد الله التى سوت هذا الإنسان ؛ وإنها النفخة من روح الله فى هذا الكيان . . إنها التفسير الوحيد الممكن لهذه العجيبة التى تتكرر فى كل لحظة ، والناس عنها غافلون . . ثم هى النفخة من روح الله التى جعلت من هذا الكائن العضوى إنسانا ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنسانى مميز من سائر الكائنات العضوية الحيوانية : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . . وكل تعليل آخر عاجز عن تفسير تلك العجيبة التى تواجه العقل البشرى بالحيرة الغامرة التى لاتخرج منها بغير ذلك التفسير .

ومع كل هـذا الفيض من الفضل . الفضل الذى يجعل من الماء المهين ذلك الإنسان الكريم . الفضل الذى أودع تلك الخلية الصغيرة الضعيفة كل هـذا الرصيد من القدرة على التكاثر والنماء ، والتطور والتحول ، والتجمع والتخصص . ثم أودعها كل تلك الخصائص والاستعدادات والوظائف العليا التى تجعل من الإنسان إنسانا . . مع كل هـذا الفيض فإن الناس لايشكرون إلا فى القليل : « قليلا ماتشكرون » . .

***

وفى ظل مشهد النشأة الأولى للإنسان ، وأطوار هذه النشأة العجيبة ، الخارقة لكل مألوف ، وإن كانت تتكرر فى كل لحظة ، وتقع أمام الأنظار والأسماع . فى ظل هذا المشهد يعرض اعتراضهم على النشأة الآخرة ، وشكهم فى البعث والنشور . فيبدو هـذا الشك وذلك الاعتراض غريبين كل الغرابة :

« وقالوا : أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون » ..

إنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقا جديدا ، بعد موتهم ودفنهم ، وتحول أجسامهم إلى رفات يغيب في الأرض ، ويختلط بذراتها ، ويضل فيها ، فماذا في هذا من غرابة أمام النشأة الأولى ؟ لقد بدأ الله خلق الإنسان من طين . من هذه الأرض التي يقولون إن رفاتهم سيضل فيها ويختلط بها . فالنشأة الآخرة شبيهة بالنشأة الأولى ، وليس فيها غريب ولاجديد ! « بل هم بلقاء ربهم كافرون » . . ومن ثم يقولون مايقولون . فهذا الكفر بلقاء الله هوالذى يلقى على أنفسهم ظل الشك والاعتراض على الأمر الواضح الذى وقع مرة ، والذى يقع ماهو قريب منه في كل لحظة .

لذلك يرد على اعتراضهم بتقرير وفاتهم ورجعتهم ، مكتفيا بالبرهان الحى الماثل في نشأتهم الأولى ولازيادة :

« قل : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون » . .

هكذا في صورة الخبر اليقين . . فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله ، الذى تتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد . ولازيادة على ماتتلقاه من هذا المصدر الوحيد :

* * *

وبمناسبة البعث الذى يعترضون عليه والرجعة التي يشكون فيها ، يقفهم وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد القيامة ؛ مشهد حى شاخص حافل بالتأثرات والحركات والحوار كأنه واقع مشهود :

« ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون — ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين — فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » . .

إنه مشهد الخزى والاعتراف بالخطيئة ، والإقرار بالحق الذى جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح مافات في الحياة الأولى . . وهم ناكسو رؤوسهم خجلا وخزيا . . « عند ربهم » . . الذى كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا . . ولكن هذا كله يجىء بعد فوات الأوان حيث لايجدى اعتراف ولا إعلان .

وقبل أن يعلن السياق جواب استخذائهم الذليل ، يقرر الحقيقة التي تتحكم في الموقف كله ؛ وتتحكم قبل ذلك في حياة الناس ومصائرهم :

«ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها . ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . .

ولوشاء الله لجعل لجميع النفوس طريقا واحدا . هوطريق الهدى، كما وحد طريق المخلوقات التى تهتدى بإلهام كامن فى فطرتها ، وتسلك طريقة واحدة فى حياتها من الحشرات والطير والدواب ؛ أوالخلائق التى لاتعرف إلا الطاعات كالملائكة . لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة ، يملك معها الهدى والضلال ؛ ويختار الهداية أو يحيد عنها ؛ ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة ، التى فطره الله عليها لغرض ولحكمة فى تصميم هذا الوجود . ومن ثم كتب الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ، ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم .

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسو رؤوسهم . هؤلاء ممن حق عليهم هذا القول . ومن ثم يقال لهم :

« فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » . .

يومكم هذا الحاضر . فنحن فى المشهد فى اليوم الآخر . . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم فى فسحة من الوقت . ذوقوا « إنا نسيناكم » . . والله لاينسى أحدا . ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة وفيها إهمال وفيها ازدراء .

« فذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » . .

ويسدل الستار على المشهد . وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه . وترك المجرمون لمصيرهم المهين. ويحس قارىء القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك ، وكأنهم شاخصون حيث تركهم ! وهذه إحدى خصائص التصوير القرآنى المحيى للمشاهد الموحى للقلوب .

***

يسدل الستار على ذلك المشهد ليرفعه عن مشهد آخر ، فى ظل آخر ، وفى جو آخر ، له عطر آخر تستروح له الأرواح وتخفق له القلوب . إنه مشهد المؤمنين . مشهدهم خاشعين مخبتين عابدين ، داعين إلى ربهم وقلوبهم راجفة من خشية الله، طامعة راجية فى فضل الله . وقد ذخر لهم ربهم من الجزاء ما لايبلغ إلى تصوره خيال :

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم ،

وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون » . .

وهى صورة وضيئة للأرواح المؤمنة ، اللطيفة ، الشفيفة الحساسة المرتجفة من خشية الله وتقواه ، المتجهة إلى ربها بالطاعة المتطلعة إليه بالرجاء ، فى غير ما استعلاء ولا استكبار . هذه الأرواح هى التى تؤمن بآيات الله ، وتتلقاها بالحس المتوفز والقلب المستيقظ والضمير المستنير .

هؤلاء « إذا ذكروا بآيات ربهم خروا سجدا » تأثرا بما ذكروا به ، وتعظيما لله الذى ذكروا بآياته ، وشعورا بجلاله الذى يقابل بالسجود أول ما يقابل ، تعبيرا عن الإحساس الذى لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب « وسبحوا بحمد ربهم » . مع حركة الجسد بالسجود . « وهم لا يستكبرون » . . فهى استجابة الطائع الخاشع المنيب الشاعر بجلال الله الكبير المتعال .

ثم مشهدهم المصور لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية فى لمحة واحدة . فى التعبير العجيب الذى يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » . .

إنهم يقومون لصلاة الليل . صلاة العشاء الآخرة . الوتر . ويتهجدون بالصلاة ، ودعاء الله . ولكن التعبير القرآنى يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » . . فيرسم صورة المضاجع فى الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب . وإن كانت تبذل جهدا فى مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلا عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ . شغلا بربها . شغلا بالوقوف فى حضرته . وبالتوجه إليه فى خشية وفى طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء فى رحمته . والخوف من غضبه والطمع فى رضاه . والخوف من معصيته والطمع فى توفيقه . والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة فى الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسمة ملموسة : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » . . وهم إلى جانب هذه الحساسية المرهفة ، والصلاة الخاشعة ، والدعاء الحار يؤدون واجبهم للجماعة المسلمة طاعة لله وزكاة . . « ومما رزقناهم ينفقون » . .

هذه الصورة المشرقة الوضيئة الحساسة الشفيفة ترافقها صورة للجزاء الرفيع الخاص الفريد . الجزاء الذى تتجلى فيه ظلال الرعاية الخاصة ، والإعزاز الذاتى ، والإكرام الإلهى والحفاوة الربانية بهذه النفوس :

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ..

تعبير عجيب يشي بحفاوة الله — سبحانه — بالقوم؛ وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة مما تقر به العيون . هذا المذخور الذى لا يطلع عليه أحد سواه . والذى يظل عنده خاصة مستورا حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقياه ! وإنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم فى حضرة الله .

يا لله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله ! ومن هم — كائنا ما كان عملهم وعبادتهم وطاعتهم وتطلعهم — حتى يتولى الله جل جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، فى عناية ورعاية وود واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان ؟ !

***

وأمام مشهد المجرمين البائس الذليل ؛ ومشهد المؤمنين الناعم الكريم ، يعقب بتلخيص مبدأ الجزاء العادل ، الذى يفرق بين المسيئين والمحسنين فى الدنيا أو الآخرة ؛ والذى يعلق الجزاء بالعمل ، على أساس العدل الدقيق :

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ؟ إنا من المجرمين منتقمون » . .

وما يستوى المؤمنون والفاسقون فى طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا فى الجزاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء . والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم . والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون فى الأرض لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة ، وقانونه الأصيل . فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين فى الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذى يناسب رصيده وما قدمت يداه .

« أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى » التى تؤويهم وتضمهم « نزلا » ينزلون فيه ويثوون ، جزاء « بما كانوا يعملون » ..

« وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » . . يصيرون إليها ويأوون . ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد ! « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » وهو مشهد فيه حركة المحاولة

للفرار والدفع للنار . « وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تـكذبون » . فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب .

ذلك مصير الفاسقين فى الآخرة . وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد . فالله يتوعدهم بالعذاب فى هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » . .

لـكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ؛ فالله سبحانه وتعالى لايحب أن يعذب عباده إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجبات العذاب . فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب فى الأرض « لعلهم يرجعون » . . وتستيقظ فطرتهم ، ويردهم ألم العذاب إلى الصواب . ولو فعلوا لما صاروا إلى مصير الفاسقين الذى رأيناه فى مشهدهم الأليم . فأما إذا ذكروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها وجاءهم العذاب الأدنى فلم يرجعوا ولم يعتبروا فإنهم إذن ظالمون « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ؟ » وإنهم إذن يستحقون الانتقام فى الدنيا والآخرة : « إنا من المجرمين منتقمون » . . وياهوله من تهديد . والجبار المتكبر هو الذى يتوعد هؤلاء الضعاف المساكين بالانتقام الرعيب !

***

وتنتهى تلك الجولة مع مصائر المجرمين والصالحين ، وعواقب المؤمنين والفاسقين ، ومشاهد هؤلاء وهؤلاء فى اليوم الذى يشكون فيه ويسترييون . ثم يأخذ سياق السورة فى جولة جديدة مع موسى وقومه ورسالته . جولة مختصرة لاتزيد على إشارة إلى كتاب موسى — عليه السلام — الذى جعله الله هدى لبنى إسرائيل ؛ كما جعل القرآن كتاب محمد — صلى الله عليه وسلم — هدى للمؤمنين . وإلى التقاء صاحب القرآن مع صاحب التوراة على الأصل الواحد والعقيدة الثابتة . وإلى اصطفاء الصابرين الموقنين من قوم موسى ليكونوا أئمة لقومهم إيحاء للمسلمين فى ذلك الحين بالصبر واليقين ، وبيانا للصفة التى تستحق بها الإمامة فى الأرض والتمكين :

« ولقد آتينا موسى الكتاب — فلا تـكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

وتفسير هـذه العبارة المعترضة : « فلا تـكن فى مرية من لقائه » على معنى تثبيت الرسول

— صلى الله عليه وسلم — على الحق الذى جاء به ؛ وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذى جاء به موسى فى كتابه ؛ والذى يلتقى عليه الرسولان ويلتقى عليه الكتابان . . هـذا التفسير أرجح عندى مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبى — صلى الله عليه وسلم — لموسى عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج . فإن اللقاء على الحق الثابت ، والعقيدة الواحدة ، هو الذى يستحق الذكر ، والذى ينسلك فى سياق التثبيت على مايلقاه النبى — صلى الله عليه وسلم — من التكذيب والإعراض ، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء . وكذلك هو الذى يتسق مع ماجاء بعده فى الآية : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » . . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك فى مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بنى إسرائيل ، وتوقن كما أيقنوا ، ليكون منهم أئمة للمسلمين كما كان أولئك أئمة لبنى إسرائيل . ولتقرير طريق الإمامة والقيادة ، وهو الصبر واليقين .

أما اختلاف بنى إسرائيل بعد ذلك فأمرهم فيه متروك إلى الله :

« إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

***

وبعد هذه الإشارة يأخذ السياق المكذبين فى جولة مع مصارع الغابرين :

«أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ؟ إن فى ذلك لآيات . أفلا يسمعون » ؟

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله فى المكذبين ، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابى . وهـذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة فى نشوئها ودثورها ، وضعفها وقوتها . والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هـذه القوانين ، واطراد تلك السنن ، ويتخذ من مصارع القرون ، وآثار الماضين ، الدارسة الخربة ، أوالباقية بعد سكانها موحشة . . يتخذ منها معارض للعبرة ، وإيقاظ القلوب ، وإثارة الحساسية ، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين . كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس . ويرفع بهـذا مدارك البشر ومقاييسهم ، فـلا ينعزل شعب أو جيل فى حدود الزمان والمكان ؛ وينسى النظام الثابت فى حياة البشر ، المطرد على توالى القرون . وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير !

وإن للآثار الخاوية لحديثا رهيبا عميقا ، للقلب الشاعر ، والحس المبصر ، وإن له لرجفة

فى الأوصال ، ورعشة فى الضمائر ، وهزة فى القلوب . ولقد كان العرب المخاطبون بهذه الآية ابتداء يمشــون فى مساكن عاد وثمود ويرون الآثار الباقية من قرى قوم لوط . والقرآن يستنكر أن تــكون مصارع هذه القرون معروضة لهم ؛ وأن تــكون مساكن القوم أمامهم ، يمرون عليها ويمشون فيها ؛ ثم لا يستجيش هذا قلوبهم ، ولا يهز مشاعرهم ، ولا يستثير حساسيتهم بخشية الله ، وتوقى مثل هذا المصير ؛ ولا يهدى لهم ويبصرهم بالتصرف المنجى من استحقاق كلمة الله بالأخذ والتدمير :

« إن فى ذلك لآيات . أفلا يسمعون ؟ » . .

يسمعون قصص الغابرين الذين يمشون فى مساكنهم ، أو يسمعون هذا التحذير ، قبل أن يصدق فيهم النذير ، ويأخذهم النــكير !

***

وبعد لمسة البلى والدثور ، وما توقعه فى الحس من رهبة وروعة ، وما تثيره فى القلب من رجفة ورعشة . يلمس قلوبهم بريشة الحياة النابضة فى الموات ؛ ويجول بهم جولة فى الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، كما جال بهم من قبل فى الأرض التى كانت حية فأدركها البلى والممات :

« أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ أفلا يبصرون ؟ » . .

فهذه الأرض الميتة البور ، يرون أن يد الله تسوق إليها المــاء المحيى ؛ فإذا هى خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة . الزرع الذى تأكل منه أنعامهم وتأكل منه أنفسهم . وإن مشهد الأرض الجدبة والحيا يصيبها فإذا هى خضراء .. إن هذا المشهد ليفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها ؛ والشعور بحلاوة الحياة ونداوتها ؛ والإحساس بواهب هــذه الحياة الجيــلة الناضرة ؛ إحساس حب وقربى وانعطاف ؛ مع الشعور بالقدرة المبدعة واليد الصناع ، التى تشيع الحياة والجمال فى صفحات الوجود .

وهكذا يطوّف القرآن بالقلب البشرى فى مجالى الحياة والنماء ، بعد ماطوّف به فى مجالى البلى والدثور ، لاستجاشة مشاعره هنا وهناك ، وإيقاظه من بلادة الألفة ، وهمــود العادة ؛ ولرفع الحواجز بينه وبين مشاهد الوجود ، وأسرار الحياة ، وعــبر الأحــداث ، وشواهد التاريخ .

***

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة بعد هذا المطاف الطويل . فيحكى استعجالهم بالعذاب الذى يوعدون ؛ وشكهم فى صدق الإنذار والتحذير . ويرد عليهم مخوفا محذرا من تحقيق مايستعجلون به ، يوم لاينفعهم إيمان ، ولايمهلون لإصلاح مافات . ويختم السورة بتوجيه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الإعراض عنهم ، وتركهم لمصيرهم المحتوم :

« ويقولون : متى هــذا الفتح إن كنتم صادقين . قل : يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » . .

والفتح هو الفصل فيما بين الفريقين من خلاف ؛ وتحقق الوعيد الذى كان يخدعهم أنه لايجيئهم من قريب ؛ وهم غافلون عن حــكمة الله فى تأخــيره إلى أجله الذى قدره ، والذى لايقدمه استعجالهم ولايؤخره . وماهم بقادرين على دفعه ولا الإفلات منه .

« قل : يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون » . .

سواء كان هذا اليوم فى الدنيا . إذ يأخذهم الله وهم كافرون ، فلا يمهلهم بعده ، ولاينفعهم إيمانهم فيه . أو كان هذا اليوم فى الآخرة إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون :

وهذا الرد يخلخل المفاصل ، ويزعزع القلوب . . ثم يعقبه الإيقاع الأخير فى السورة :

« فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » :

وفى طياته تهديد خفى بعاقبة الانتظار ، بعد أن ينفض الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يده من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

* * *

وتختم السورة على هذا الإيقاع العميق ، بعــد تلك الجولات والإيحاءات والمشاهد والمؤثرات ، وخطاب القلب البشرى بشتى الإيقاعات التى تأخــذه من كل جانب ، وتأخذ عليه كل طريق . .

سورة الأحزاب مدنية
وآياتها ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها النبيُّ اتقِ اللهَ ، ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً * واتَّبِعْ ما يُوحى إليكَ من ربِّكَ ، إنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيراً * وتوكَّلْ على اللهِ ، وكفى باللهِ وكيلاً .

« ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبينِ في جوفِهِ ؛ وما جعلَ أزواجَكُمُ اللائي تُظاهِرونَ منهنَّ أمهاتِكُمْ ؛ وما جعلَ أدعياءَكُمْ أبناءَكُمْ . ذلكُمْ قولُكُمْ بأفواهِكُمْ ؛ واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيلَ * ادعوهُمْ لآبائِهِمْ هو أقسطُ عندَ اللهِ ؛ فإن لم تعلموا آباءَهُمْ فإخوانُكُمْ في الدينِ ومواليكُمْ ؛ وليسَ عليكُمْ جناحٌ فيما أخطأتُمْ بهِ ؛ ولكنْ ما تعمَّدَتْ قلوبُكُمْ ؛ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً .

« النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفسِهِمْ ، وأزواجُهُ أمهاتُهُمْ ، وأولو الأرحامِ بعضُهُمْ أولى ببعضٍ في كتابِ اللهِ منَ المؤمنينَ والمهاجرينَ ، إلَّا أن تفعلوا إلى أوليائِكُمْ معروفاً ، كانَ ذلكَ في الكتابِ مسطوراً .

« وإذْ أخذنا منَ النبيينَ ميثاقَهُمْ ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابنِ مريمَ ، وأخذنا منهُمْ ميثاقاً غليظاً * ليسألَ الصادقينَ عن صدقِهِمْ ، وأعدَّ للكافرينَ عذاباً أليماً » ..

هذه السورة تتناول قطاعا حقيقيا من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى ، إلى ماقبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة تصويرا واقعيا مباشرا . وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشىء .

والتوجيهات والتعقيبات على هذه الأحداث والتنظيمات قليلة نسبيا ؛ ولاتشغل من جسم السورة إلا حيزا محدودا ، يربط الأحداث والتنظيمات بالأصل الكبير . أصل العقيدة فى الله والاستسلام لقدره . ذلك كافتتاح السورة : « ياأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين، إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ... » . . وكالتعقيب على بعض التنظيمات الاجتماعيــة فى أول السورة : « كان ذلك فى الكتاب مسطورا . وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما » . . والتعقيب على موقف المرجفين « يوم الأحزاب » التى سميت السورة باسمها . « قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لاتمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » . . ومثل قوله فى صدد أحد التنظيمات الاجتماعية الجديدة ، المخالفة لمألوف النفوس فى الجاهلية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . . وأخـيرا ذلك الإيقاع الهائل العميق : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا » . .

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة ، فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ؛ ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة . كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية ، وللنظام الإسلامى .

والسورة تتولى جانبا من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ؛ وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ؛ كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ؛ وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد .

وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب ، وغزوة بنى قريظة ، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف . كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بمواقف الكافرين والمنافقين واليهود ؛ وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة . سواء عن طريق الهجوم الحربى والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ؛ أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية . . ثم ما نشأ من الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة تقتضى تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية والتصورات الشعورية ؛ وإقامتها على أساس ثابت يناسب تلك الآثار التى خلفتها الغزوات والغنائم فى واقع الجماعة المسلمة .

ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتساوق موضوعاتها المنوعة . وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التى تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة .

***

تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده . وهو البدء الذى يربط سائر ما ورد فى السورة من تنظيمات وأحداث بالأصل الكبير الذى تقوم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته ، ونظمه وأوضاعه ، وآدابه وأخلاقه . . أصل استشعار القلب لجلال الله ، والاستسلام المطلق لإرادته ؛ واتباع المنهج الذى اختاره ، والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته .

وبعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية . مبتدئا بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » .. يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد ، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد ، وإلا نافق ، واضطربت خطاه . وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا ، فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا ؛ وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

ومن ثم يأخذ فى إبطال عادة الظهار ـ وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه : « وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم » . ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولاينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولاتصير أما بهذا الكلام (١) . . ويثنى بإبطال عادة التبنى وآثاره : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم » فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون ، ولاتترتب على هذا التبنى آثاره الأخرى (التى سنفصل الحديث عنها فيما بعد) . ويستبقى بعد ذلك أو ينشىء الولاية العامة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المؤمنين جميعا ؛ ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ، كما ينشىء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجميع المؤمنين : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . . ثم يبطل آثار المؤاخاة التى تمت فى أول الهجرة ؛ ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية فى الإرث والدية وما إليها : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » . وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ماعداها من التنظيمات الوقتية .

ويعقب على هذا التنظيم الجديد ، الذى يستمد من منهج الإسلام وحكم الله ، بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين ، وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات ، والمبادىء والتوجيهات ، لتقر فى الضمائر والأخلاد .

وهذا هو إجمال الشوط الأول فى السورة .

***

ويتناول الشوط الثانى بيان نعمة الله على المؤمنين ، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين . ثم يأخذ فى تصوير وقعة الأحزاب وبنى قريظة تصويرا حيا ، فى مشاهد متعاقبة ، ترسم المشاعر الباطنة ، والحركات الظاهرة ، والحوار بين الجماعات والأفراد . وفى خلال رسم المعركة وتطوراتها تجىء التوجيهات فى موضعها المناسب ؛ وتجىء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآنى فى إنشاء القيم الثابتة التى يقررها للحياة ، من خلال ماوقع فعلا ، وما جاش فى الأخلاد والضمائر .

وطريقة القرآن الدائمة فى مثل هذه الوقائع التى يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس ، وتقرير القيم ، ووضع الموازين وإنشاء التصورات التى يريد لها أن تسود . . طريقة القرآن فى مثل

(١) وسنبين مايتبع فى هذه الحالة عند الكلام التفصيلى عن نص الآية .

هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت ، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها . ثم يقول للمؤمنين حكمه على ماوقع ، وتقده لما فيه من خطأ وانحراف ، وثناءه على مافيه من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف ، وتنمية الصواب والاستقامة . وربط هـذا كله بقدر الله وإرادته وعمله ونهجه المستقيم ، وبفطرة النفس ، ونواميس الوجود .

وهكذا نجد وصف المعركة يبدأ بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » . . ويتوسطها قوله : « قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لاتمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا » . . وبقوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » . . ويختمها بقوله : « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما » . .

وهذا إلى جانب عرض تصورات المؤمنين الصادقين للموقف ، وتصورات المنافقين والذين فى قلوبهم مرض عرضا يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة من خلال تلك التصورات : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . . « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما » .. ثم تجىء العاقبة بالقول الفصل والخبر اليقين : «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » . .

***

بعد ذلك يجىء قرار تخيير أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — اللواتى طالبنه بالتوسعة فى النفقة عليهن بعد ماوسع الله عليه وعلى المسلمين من فىء بنى قريظة العظيم وما قبله من الغنائم . تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ورضين هذا المقام الكريم عند الله وعند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وآثرنه على متاع الحياة . ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف فى الأجر إن اتقين وفى العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة . وعلل هـذه المضاعفة بمقامهن الكريم وصلتهن برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونزول القرآن فى بيوتهن وتلاوته ، والحكمة

التي يسمعنها من النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستطرد في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات .

وكان هذا هو الشوط الثالث .

* * *

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زيد ابن حارثة مولاه . وما نزل في شأنه أولا من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله ، ليس لهم منه شيء ، وليس لهم في أنفسهم خيرة . إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شيء ، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . .

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق ؛ وما وراءه من إبطال آثار التبني ، الذي سبق الكلام عليه في أول السورة . إبطاله بسابقة عملية ؛ يختار لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها . فيقع الابتلاء على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع ، بعد تقريرها في أعماق الضمير : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » . .

وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين كافة : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . .

ويختم هذا الشوط بتوجيهات للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين . : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

* * *

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول . ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرمن عليه . ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي وزوجاته ، في حياته وبعد وفاته . وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو أبنائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن . وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أزواجه وبيوته

وشعوره ؛ ويلمنهم فى الدنيا والآخرة . مما يشى بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئا كثيرا .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبى وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » . . وبتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة بإغراء النبى — صلى الله عليه وسلم — بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة أخيرا . وكل هذا يشير إلى شدة إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى فى المدينة بوسائل شريرة خبيثة .

***

والشوط السادس والأخير فى السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة ، والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله ، والتلويح بأنها قد تكون قريبا . ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » .. ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » . .

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفورا رحيما » . .

وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة ؛ وهى التى تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى . أمانة العقيدة والاستقامة عليها . والدعوة والصبر على تكاليفها ، والشريعة والقيام على تنفيذها فى أنفسهم وفى الأرض من حولهم . مما يتمشى مع موضوع السورة ، وجوها ؛ وطبيعة المنهج الإلهى الذى تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامى على أساسه .

والآن نتناول السورة بالتفصيل بعد هذا الإجمال السريع .

***

« يا أيها النبى اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » ..

هذا هو ابتداء السورة التى تتولى تنظيم جوانب من الحياة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع الإسلامى الوليد . وهو ابتداء يكشف عن طبيعة النظام الإسلامى والقواعد التى يقوم عليها فى عالم الواقع وعالم الضمير .

إن الإسلام ليس مجموعة إرشادات ومواعظ ، ولا مجموعة آداب وأخلاق ، ولا مجموعة شرائع وقوانين ، ولا مجموعة أوضاع وتقاليد .. إنه يشتمل على هذا كله . ولكن هذا كله ليس هو الإسلام .. إنما الإسلام الاستسلام . الاستسلام لمشيئة الله وقدره ؛ والاستعداد ابتداء لطاعة أمره ونهيه ؛ ولاتباع المنهج الذى يقرره دون التلفت إلى أى توجيه آخر وإلى أى اتجاه . ودون اعتماد كذلك على سواه . وهو الشعور ابتداء بأن البشر فى هذه الأرض خاضعون للناموس الإلهى الواحد الذى يصرّفهم ويصرّف الأرض ، كما يصرّف الكواكب والأفلاك ؛ ويدبر أمر الوجود كله ماخفى منه وما ظهر ، وما غاب منه وما حضر ، وما تدركه منه العقول وما يقصر عنه إدراك البشر . وهو اليقين بأنهم ليس لهم من الأمر شىء إلا اتباع ما يأمرهم به الله والانتهاء عما ينهاهم عنه ؛ والأخذ بالأسباب التى يسرها لهم ، وارتقاب النتائج التى يقدرها الله .. هذه هى القاعدة . ثم تقوم عليها الشرائع والقوانين ، والتقاليد والأوضاع ، والآداب والأخلاق . بوصفها الترجمة العملية لمقتضيات العقيدة المستكنة فى الضمير ؛ والآثار الواقعية لاستسلام النفس لله ، والسير على منهجه فى الحياة .. إن الإسلام عقيدة . تنبثق منها شريعة . يقوم على هذه الشريعة نظام . وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هى الإسلام ..

ومن ثم كان التوجيه الأول فى السورة التى تتولى تنظيم الحياة الاجتماعية للمسلمين بتشريعات وأوضاع جديدة ، هو التوجيه إلى تقوى الله . وكان القول موجها إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — القائم على تلك التشريعات والتنظيمات .. « يا أيها النبى اتق الله » .. فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هى القاعدة الأولى ، وهى الحارس القائم فى أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ . وهى التى يناط بها كل تكليف فى الإسلام وكل توجيه .

وكان التوجيه الثانى هو النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع توجيههم أو اقتراحهم ، والاستماع إلى رأيهم أو تحريضهم : « ولا تطع الكافرين والمنافقين » .. وتقديم هذا النهى على الأمر باتباع وحى الله يوحى بأن ضغط الكافرين والمنافقين فى المدينة وما حولها كان فى ذلك الوقت عنيفا ، فاقتضى هذا النهى عن اتباع آرائهم وتوجيهاتهم ، والخضوع لدفعهم وضغطهم . ثم يبقى ذلك النهى قائما فى كل بيئة وكل زمان ، يحذر المؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا ، وفى أمر العقيدة وأمر التشريع وأمر التنظيم الاجتماعى بصفة خاصة . ليبقى منهجهم خالصا لله ، غير مشوب بتوجيه من سواه .

ولاينخدع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة ـ كما يسوغ بعض المسلمين لأنفسهم في فترات الضعف والانحراف ـ فإن الله هو العليم الحكيم ؛ وهو الذى اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته : « إن الله كان عليما حكيما » .. وما عند البشر إلا قشور ، وإلا قليل !

والتوجيه الثالث المباشر : « واتبع مايوحى إليك من ربك » . فهذه هى الجهة التى تجىء منها التوجيهات ، وهذا هو المصدر الحقيق بالاتباع . والنص يتضمن لمسات موحية تكمن فى صياغة التعبير : « واتبع مايوحى إليك من ربك » . فالوحى « إليك » بهذا التخصيص . والمصدر « من ربك » بهذه الإضافة . فالاتباع هنا متعين بحكم هذه الموحيات الحساسة ، فوق ماهو متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع . . والتعقيب : « إن الله كان بما تعملون خبيرا » . . فهو الذى يوحى عن خبرة بكم وبما تعملون ؛ وهو الذى يعلم حقيقة ماتعملون ، ودوافعكم إلى العمل من نوازع الضمير .

والتوجيه الأخير : « وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » . . فلا يهمنك أكانوا معك أم كانوا عليك ؛ ولاتحفل كيدهم ومكرهم ؛ وألق بأمرك كله إلى الله ، يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته . . ورد الأمر إلى الله فى النهاية والتوكل عليه وحده ، هو القاعدة الثابتة المطمئنة التى يفىء إليها القلب ؛ فيعرف عندها حدوده ، وينتهى إليها ؛ ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير ، فى ثقة وفى طمأنينة وفى يقين .

وهذه العناصر الثلاثة : تقوى الله . واتباع وحيه . والتوكل عليه ـ مع مخالفة الكافرين والمنافقين ـ هى العناصر التى تزود الداعية بالرصيد ؛ وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص . من الله ، وإلى الله ، وعلى الله . « وكفى بالله وكيلا » .

ويختم هذه التوجيهات بإيقاع حاسم مستمد من مشاهدة حسية :

« ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . .

إنه قلب واحد ، فلابد له من منهج واحد يسير عليه . ولابد له من تصور كلى واحد للحياة وللوجود يستمد منه . ولابد له من ميزان واحد يزن به القيم ، ويقوّم به الأحداث والأشياء . وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه .

ولايملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ؛ ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ؛ ويستمد أوضاعه الاجتماعية أوالاقتصادية من معين ثالث ؛ ويستمدفنونه وتصوراته

من معين رابع .. فهـذا الخليط لا يكوّن إنسانا له قلب . إنمـا يكون مزقا وأشلاء ليس لها قوام !

وصاحب العقيدة لايملك أن تـكون له عقيدة حقا ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة فى موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيرا كان هذا الموقف أم كبيرا . لايملك أن يقول كلمة ، أو يتحرك حركة ، أو ينوى نية ، أو يتصور تصورا ، غير محكوم فى هذا كله بعقيدته ــ إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة فى كيانه ــ لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحـد ، يخضع لناموس واحد ، ويستمد من تصور واحد ، ويزن بميزان واحد .

لايملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله : فعلت كذا بصفتى الشخصية . وفعلت كذا بصفتى الإسـلامية ! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات . أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها فى هذه الأيام ! إنه شخص واحد له قلب واحد ، تعمره عقيدة واحدة . وله تصور واحد للحياة ، وميزان واحد للقيم . وتصوره المستمد من عقيدته متلبس بكل مايصدر عنه ، فى كل حالة من حالاته على السواء .

وبهذا القلب الواحد يعيش فردا ، ويعيش فى الأسرة ، ويعيش فى الجماعة ، ويعيش فى الدولة . ويعيش فى العالم . ويعيش سرا وعلانية . ويعيش عاملا وصاحب عمل . ويعيش حاكما ومحكوما . ويعيش فى السراء والضراء .. فلا تتبدل موازينه ، ولا تتبدل قيمه ، ولاتتبدل تصوراته .. « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ..

ومن ثم فهو منهج واحد ، وطريق واحد ، ووحى واحد ، واتجاه واحد . وهو استسلام لله وحـده . فالقلب الواحد لايعبد إلهين ، ولا يخدم سيدين ، ولاينهج نهجين ، ولا يتجه اتجاهين . ومايفعل شيئا من هذا إلا أن يتمزق ويتفرق ويتحول إلى أشلاء وركام !

* * *

وبعد هذا الإيقاع الحاسم فى تعيين النهج والطريق يأخذ فى إبطال عادة الظهار وعادة التبنى . ليقيم المجتمع على أساس الأسرة الواضح السليم المستقيم :

« وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتـكم . وماجعل أدعياءكم أبناءكم . ذلـكم قولـكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانـكم فى الدين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولـكن ماتعمدت قلوبكم . وكان الله غفورا رحيما » .

كان الرجل فى الجاهلية يقول لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى . أى حرام محرمة كما تحرم علىّ أمى . ومن ساعتئذ يحرم عليه وطؤها ؛ ثم تبقى معلقة ، لاهى مطلقة فتتزوج غيره ، ولاهى زوجة فتحل له . وكان فى هـذا من القسوة مافيه ؛ وكان طرفا من سوء معاملة المرأة فى الجاهلية والاستبداد بها ، وسومها كل مشقة وعنت .

فلما أخذ الإسلام يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية فى محيط الأسرة ؛ ويعتبر الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأولى ؛ ويوليها من عنايته ما يليق بالمحضن الذى تنشأ فيه الأجيال . . جعل يرفع عن المرأة هذا الخسف ؛ وجعل يصرف تلك العلاقات بالعدل واليسر . وكان مما شرعه هذه القاعدة : « وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم » . . فإن قولة باللسان لاتغير الحقيقة الواقعة ، وهى أن الأم أم والزوجة زوجة ؛ ولا تتحول طبيعة العلاقة بكلمة ! ومن ثم لم يعد الظهار تحريما أبديا كتحريم الأم كما كان فى الجاهلية .

وقد روى أن إبطال عادة الظهار شرع فيما نزل من « سورة المجادلة » عندما ظاهر أوس ابن الصامت من زوجه خولة بنت ثعلبة ، فجاءت إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشكو تقول : يارسول الله ، أكل مالى ، وأفنى شبابى ، ونثرت له بطنى . حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ، ظاهر منى . فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ما أراك إلا قد حرمت عليه » . فأعادت ذلك مرارا . فأنزل الله : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا . وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ــ من قبل أن يتماسا ــ ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ؛ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا . ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » . . فجعل الظهار تحريما مؤقتا للوطء ــ لا مؤبدا ولا طلاقا ــ كفارته عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا . وبذلك تحل الزوجة مرة أخرى ، وتعود الحياة الزوجية لسابق عهدها . ويستقر الحكم الثابت المستقيم على الحقيقة الواقعة : «وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم » . . وتسلم الأسرة من التصدع بسبب تلك العادة الجاهلية ، التى كانت تمثل طرفا من سوم المرأة الخسف والعنت ، ومن اضطراب علاقات الأسرة وتعقيدها وفوضاها ، تحت نزوات الرجال وعنجهيتهم فى المجتمع الجاهلى .

هذه مسألة الظهار . فأما مسألة التبنى ، ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم ، فقد كانت كذلك تنشأ من التخلخل فى بناء الأسرة ، وفى بناء المجتمع كله .

ومع ماهو مشهور من الاعتزاز بالعفة فى المجتمع العربى ، والاعتزاز بالنسب ، فإنه كانت توجد إلى جانب هذا الاعتزاز ظواهر أخرى مناقضة فى المجتمع ، فى غير البيوت المعدودة ذات النسب المشهور .

كان يوجد فى المجتمع أبناء لايعرف لهن آباء ! وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه . يدعوه ابنه ، ويلحقه بنسبه ، فيتوارث وإياه توارث النسب .

وكان هناك أبناء لهم آباء معروفون . ولكن كان الرجل يعجب بأحد هؤلاء فيأخذه لنفسه ، ويتبناه ، ويلحقه بنسبه ، فيعرف بين الناس باسم الرجل الذى تبناه ، ويدخل فى أسرته . وكان هذا يقع بخاصة فى السبى ، حين يؤخذ الأطفال والفتيان فى الحروب والغارات ؛ فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدا من هؤلاء دعاه ابنه ، وأطلق عليه اسمه ، وعرف به ، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها .

ومن هؤلاء زيد ابن حارثة الكلبى . وهو من قبيلة عربية . سبى صغيرا فى غارة أيام الجاهلية ؛ فاشتراه حكيم ابن حزام لعمته خديجة — رضى الله عنها — فلما تزوجها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهبته له . ثم طلبه أبوه وعمه فخيره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاختار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأعتقه ، وتبناه ، وكانوا يقولون عنه : زيد ابن محمد . وكان أول من آمن به من الموالى .

فلما شرع الإسلام ينظم علاقات الأسرة على الأساس الطبيعى لها ، ويحكم روابطها ، ويجعلها صريحة لاخلط فيها ولا تشويه . . أبطل عادة التبنى هذه ؛ ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية . . علاقات الدم والأبوة والبنوة الواقعية . وقال : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم » .. « ذلكم قولكم بأفواهكم » .. والكلام لايغير واقعا ، ولاينشئ علاقة غير علاقة الدم ، وعلاقة الوراثة للخصائص التى تحملها النطفة ، وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحى !

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . .

يقول الحق المطلق الذى لايلابسه باطل . ومن الحق إقامة العلاقات على تلك الرابطة الحقة المستمدة من اللحم والدم ، لاعلى كلمة تقال بالفم . « وهو يهدى السبيل » المستقيم ، المتصل

بناموس الفطرة الأصيل ؛ الذى لايغنى غناءه سبيل آخر من صنع البشر ، يصنعونه بأفواههم. بكلمات لامدلول لها من الواقع . فتغلبها كلمة الحق والفطرة التى يقولها الله ويهدى بها السبيل .

« ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . .

وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه . عدل للوالد الذى نشأ هذا الولد من بضعة منه حية . وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه ، ويرثه ويورثه ، ويتعاون معه ويكون امتدادا له بوراثاته الكامنة ، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده . وعدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شىء فى مكانه ؛ ويقيم كل علاقة على أصلها الفطرى ، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد ؛ كما أنه لايحمل غير الوالد الحقيقى تبعة البنوة ، ولا يعطيه مزاياها . ولا يحمل غير الولد الحقيقى تبعة البنوة ولايحابيه بخيراتها !

وهذا هو النظام الذى يجعل التبعات فى الأسرة متوازنة . ويقيم الأسرة على أساس ثابت دقيق مستمد من الواقع . وهو فى الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحق ومن مطابقة الواقع الفطرى العميق . . وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشل ، ضعيف ، مزور الأسس ، لايمكن أن يعيش ! (١)

ونظرا للفوضى فى علاقات الأسرة فى الجاهلية والفوضى الجنسية كذلك ، التى تخلف عنها أن تختلط الأنساب ، وأن يجهل الآباء فى بعض الأحيان ، فقد يسر الإسلام الأمر ــ وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة ، وإقامة النظام الاجتماعى على أساسها ــ فقرر فى حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين مكانا للأدعياء فى الجماعة الإسلامية ، قائما على الأخوة فى الدين والموالاة فيه :

« فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . .

وهى علاقة أدبية شعورية ؛ لاتترتب عليها التزامات محددة ، كالتزام التوارث والتكافل فى دفع الديات ــ وهى التزامات النسب بالدم ، التى كانت تلتزم كذلك بالتبنى ــ وذلك كى لايترك هؤلاء الأدعياء بغير رابطة فى الجماعة بعد إلغاء رابطة التبنى .

وهـذا النص : « فإن لم تعلموا آباءهم » . . يصور لنا حقيقة الخلخلة فى المجتمع

---

(١) ولقد حاول النظام الشيوعى أن يتنكر لقاعدة الأسرة فى بناء المجتمع ، فتخبط ومايزال يتخبط . وعلى الرغم من قاعدة النظام المذهبية الفلسفية فإن الفطرة أخذت تكافح فى روسيا وتعود شيئا فشيئا إلى السيطرة والبروز !

الجاهلى . وحقيقة الفوضى فى العلاقات الجنسية . هـذه الفوضى وتلك الخلخلة التى عالجها الإسـلام بإقامة نظـام الأسرة على أساس الأبوة . وإقامة نظام المجتمع على أساس الأسرة السليمة .

وبعد الاجتهاد فى رد الأنساب إلى حقائقها فليس على المؤمنين من مؤاخذة فى الحالات التى يعجزون عن الاهتداء فيها إلى النسب الصحيـح :

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ؛ ولـكن ما تعمدت قلوبكم » . .

وهذه السماحة مردها إلى أن الله سبحانه وتعالى يتصف بالغفران والرحمة ، فـلا يعنت الناس بما لايستطيعون :

« وكان الله غفورا رحيما » . .

ولقد شدد رسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ فى التثبت والتأكد من النسب لتوكيد جدية التنظيم الجديد الذى يلغى كل أثر للتخلخل الاجتماعى الجاهلى . وتوعد الذين يكتمون الحقيقة فى الأنساب بوصمة الـكفر . قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ابن ابراهيم . حـدثنا ابن علية . عن عيينة ابن عبد الرحمان عن أبيه قال : قال أبو بكرة ـ رضى الله عنه ـ قال الله عز وجل : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عنـد الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانـكم فى الدين ومواليكم » . . فأنا ممن لايعرف أبوه ، فأنا من إخوانـكم فى الدين . . قال أبى (من كلام عيينة ابن عبد الرحمان) : والله إنى لأظنه لوعلم أن أباه كان حمارا لانتمى إليه . وقد جاء فى الحديث : « من ادعى إلى غـير أبيه ـ وهو يعلم ـ إلا كفر » . . وهـذا التشديد يتمشى مع عناية الإسـلام بصيانة الأسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل دخل ؛ وحياطتها بكل أسباب السلامة والاستقامة والقوة والثبوت . ليقيم عليها بناء المجتمع المتماسك السليم النظيف العفيف .

***

بعد ذلك يقرر إبطال نظام المؤاخاة كما أبطل نظام التبنى . ونظام المؤاخاة لم يكن جاهليا ؛ إنمـا هو نظام استحدثه الإسلام بعد الهجرة ، لمواجهة حالة المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأهليهم فى مكة ؛ ومواجهة الحالة كذلك بين المسلمين فى المدينة ممن انفصلت علاقاتهم بأسرهم نتيجة لإسـلامهم . . وذلك مع تقرير الولاية العامة للنبى ـ صـلى الله عليه وسلم ـ وتقديمها

على جميع ولايات النسب ؛ وتقرير الأمومة الروحية بين أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجميع المؤمنين :

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ؛ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . .

لقد هاجر المهاجرون من مكة إلى المدينة ، تاركين وراءهم كل شيء ، فارين إلى الله بدينهم ، مؤثرين عقيدتهم على وشائج القربى ، وذخائر المال ، وأسباب الحياة ، وذكريات الطفولة والصبا ، ومودات الصحبة والرفقة ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، متخلين عن كل ماعداها . وكانوا بهذه الهجرة على هذا النحو ، وعلى هذا الانسلاخ من كل عزيز على النفس ، بما فى ذلك الأهل والزوج والولد ــ المثل الحى الواقع فى الأرض على تحقق العقيدة فى صورتها الكاملة ، واستيلائها على القلب ، بحيث لاتبقى فيه بقية لغير العقيدة . وعلى توحيد الشخصية الإنسانية لتصدق قول الله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . .

كذلك وقع فى المدينة شيء من هذا فى صورة أخرى . فقد دخل فى الإسلام أفراد من بيوت ، وظل آخرون فيها على الشرك . فانبتت العلاقة بينهم وبين قرابتهم . ووقع على أية حال تخلخل فى الروابط العائلية ؛ وتخلخل أوسع منه فى الارتباطات الاجتماعية .

وكان المجتمع الإسلامى لايزال وليدا ، والدولة الإسلامية الناشئة أقرب إلى أن تكون فكرة مسيطرة على النفس ، من أن تكون نظاما مستندا إلى أوضاع مقررة .

هنا ارتفعت موجة من المد الشعوري للعقيدة الجديدة ، تغطى على كل العواطف والمشاعر ، وكل الأوضاع والتقاليد ، وكل الصلات والروابط . لتجعل العقيدة وحدها هى الوشيجة التى تربط القلوب ، وتربط ـ فى الوقت ذاته ـ الوحدات التى انفصلت عن أصولها الطبيعية فى الأسرة والقبيلة ؛ فتقوم بينها مقام الدم والنسب ، والمصلحة والصداقة والجنس واللغة . وتمزج بين هذه الوحدات الداخلة فى الإسلام ، فتجعل منها كتلة حقيقية متماسكة متجانسة متعاونة متكافلة . لابنصوص التشريع ، ولا بأوامر الدولة ؛ ولكن بدافع داخلى ومد شعورى . يتجاوز كل ما ألفه البشر فى حياتهم العادية . وقامت الجماعة الإسلامية على هذا الأساس ، حيث لم يكن مستطاعا أن تقوم على تنظيم الدولة وقوة الأوضاع .

نزل المهاجرون على إخوانهم الأنصار ، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ؛ فاستقبلوهم

فى دورهم وفى قلوبهم ، وفى أمـوالهم . وتسابقوا إلى إيوائهم ؛ وتنافسوا فيهم حتى لم ينزل مهاجرى فى دار أنصارى إلا بقرعة . إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الراغبين فى إيوائهم من الأنصار . وشاركوهم كل شىء عن رضى نفس ، وطيب خاطر ، وفرح حقيقى ، مبرأ من الشح الفطرى ، كما هو مبرأ من الخيلاء والمراءاة !

وآخى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار . وكان هذا الإخاء صلة فريدة فى تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد . وقام هـذا الإخاء مقام أخوة الدم . فـكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها .

وارتفع المد الشعورى فى هذا إلى ذروة عالية ؛ وأخذ المسلمون هذه العلاقة الجديدة مأخذ الجد — شأنهم فيها شأنهم فى كل ماجاءهم به الإسلام — وقام هذا المد فى إنشاء المجتمع الإسلامى وحياطته مقام الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة . بل بمـا هو أكثر . وكان ضروريا لحفظ هـذه الجماعة الوليدة وتماسكها فى مثل تلك الظروف الاستثنائية المتشابكة التى قامت فيها .

وإن مثل هـذا المد الشعورى لضرورى لنشأة كل جماعة تواجه مثل تلك الظروف ، حتى توجد الدولة المتمكنة والتشريع المستقر والأوضاع المسلمة ، التى توفر الضمانات الاستثنائية لحياة تلك الجماعة ونموها وحمايتها . وذلك إلى أن تنشأ الأحوال والأوضاع الطبيعية .

وإن الإسلام — مع حفاوته بذلك المـد الشعورى ، واستبقاء ينابيعه فى القلب مفتوحة دائمـا فوارة دائما ، مستعدة للفيضان . لحريص على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية فى النفس البشرية لا على أساس الفورات الاستثنائية ، التى تؤدى دورها فى الفترات الاستثنائية ؛ ثم تترك مكانها للمستوى الطبيعى ، وللنظام العادى ، متى انقضت فترة الضرورة الخاصة .

ومن ثم عاد القرآن الـكريم — بمجرد استقرار الأحوال فى المدينة شيئا ما بعد غزوة بدر ، واستتباب الأمر للدولة الإسـلامية ، وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار ، ووجود أسباب معقولة للارتزاق ، وتوفر قدر من الـكفاية للجميع على إثر السرايا التى جاءت بعـد غزوة بدر الـكبرى ، وبخاصة ماغنمه المسلمون من أموال بنى قينقاع بعـد إجلائهم . . عاد القرآن الـكريم بمجرد توفر هـذه الضمانات إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب ، مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر ، ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة . ورد الأمور إلى حالتها الطبيعية فى الجماعة الإسلامية . فرد الإرث والتـكافل

فى الديات إلى قرابة الدم والنسب ـ كما هى أصلا فى كتاب الله القديم وناموسه الطبيعى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين . كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . .

وقرر فى الوقت ذاته الولاية العامة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم ، بل على قرابة النفس ! : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . وقرر الأمومة الشعورية لأزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لجميع المؤمنين : « وأزواجه أمهاتهم » . .

وولاية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاية عامة تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها ، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وتشمل مشاعرهم فيكون شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب إليهم من أنفسهم . فلا يرغبون بأنفسهم عنه ؛ ولا يكون فى قلوبهم شخص أو شىء مقدم على ذاته ! جاء فى الصحيح : « والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » . وفى الصحيح أيضا أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال : يارسول الله والله لأنت أحب إلىّ من كل شىء حتى من نفسى . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الآن ياعمر » .

وليست هذه كلمة تقال ، ولكنها مرتقى عال ، لايصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية مباشرة تفتحه على هذا الأفق السامى الوضىء ؛ الذى يخلص فيه من جاذبية الذات وحبها المتوشج بالحنايا والشعاب . فإن الإنسان ليحب ذاته ويحب كل مايتعلق بها حبا فوق مايتصور ، وفوق مايدرك ! وإنه ليخيل إليه أحيانا أنه طوّع مشاعره ، وراض نفسه ، وخفض من غلوائه فى حب ذاته ، ثم مايكاد يمس فى شخصيته بما يخدش اعتزازه بها ، حتى ينتفض فجأة كما لو كانت قد لدغته أفعى ! ويحس لهذه اللسة لذعا لايملك انفعاله معه ، فإن ملكه كمن فى مشاعره ، وغار فى أعماقه ! ولقد يروض نفسه على التضحية بحياته كلها ؛ ولكنه يصعب عليه أن يروضها على تقبل المساس بشخصيته فيما يعده تصغيرا لها ، أو عيبا لشىء من خصائصها ، أو نقدا لسمة من

سماتها ، أو تنقصا لصفة من صفاتها . وذلك رغم مايزعمه صاحبها من عدم احتفاله أو تأثره ؟ والتغلب على هذا الحب العميق للذات ليس كلمة تقال باللسان ، إنمـا هو كما قلنا مرتقى عال لايصل إليـه القلب إلا بلمسة لدنية ؛ أو بمحاولة طويلة ومرانة دائمة ، ويقظة مستمرة ورغبة مخلصة تستنزل عون الله ومساعدته . وهى الجهاد الأكبر كما سماه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكفى أن عمر ـ وهو من هو ـ قد احتاج فيها إلى لفتة من النبى ـ صـلى الله عليه وسلم ـ كانت هى اللمسة التى فتحت هذا القلب الصافى .

وتشمل الولاية العامة كذلك التزاماتهم . جاء فى الصحيح . . « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرأوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيمـا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . وإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » . والمعنى أنه يؤدى عنه دينه إن مات وليس له مال يفى بدينه ؛ ويعول عياله من بعده إن كانوا صغارا .

وفيما عدا هذا فإن الحياة تقوم على أصولها الطبيعية التى لاتحتاج إلى مد شعورى عال ، ولا إلى فورة شعورية استثنائية . مع الإبقاء على صلات المودة بين الأولياء بعـد إلغاء نظام الإخاء . فلا يمتنع أن يوصى الولى لوليه بعد مماته ؛ أو أن يهبه فى حياته . . « إلا أن تفعلوا إلى أوليائـكم معروفا » . .

ويشد هذه الإجراءات كلها إلى العروة الأولى ، ويقرر أن هذه إرادة الله التى سبق بهـا كتابه الأزلى : « كان ذلك فى الـكتاب مسطورا » . . فتقر القلوب وتطمئن ؛ وتستمسك بالأصل الـكبير الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم .

بذلك تستوى الحياة على أصولهـا الطبيعية ؛ وتسير فى يسر وهوادة ؛ ولا تظل معلقة مشدودة إلى آفاق لاتبلغها عادة إلا فى فترات استثنائية محدودة فى حياة الجماعات والأفراد .

ثم يستبقى الإسلام ذلك الينبوع الفياض على استعداد للتفجر والفيضان ، كلما اقتضت ذلك ضرورة طارئة فى حياة الجماعة المسلمة .

* * *

وبمناسبة ما سطر فى كتاب الله ، وماسبقت به مشيئته ، ليـكون هو الناموس الباقى ، والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولى العزم من الرسل خاصة ، فى حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه فى الأمم التى أرسلوا إليها ؛ وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم

وكفرهم ، بعد انقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه :

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم؛ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما » . .

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى خاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها .

وقد عمم النص أولا : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » . . ثم خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين : « ومنك » . . ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات ـ قبل الرسالة الأخيرة ـ « ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم » . .

وبعد بيان أصحاب الميثاق عاد إلى وصف الميثاق نفسه : « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . . ووصف الميثاق بأنه غليظ منظور فيه إلى الأصل اللغوى للفظ ميثاق ـ وهو الحبل المفتول ـ الذى استعير للعهد والرابطة . وفيه من جانب آخر تجسيم للمعنوى يزيد إيحاءه للمشاعر . . وإنه لميثاق غليظ متين ذلك الميثاق بين الله والمختارين من عباده ، ليتلقوا وحيه ، ويبلغوا عنه ، ويقوموا على منهجه فى أمانة واستقامة .

« ليسأل الصادقين عن صدقهم » . . والصادقون هم المؤمنون . فهم الذين قالوا كلمة الصدق ، واعتنقوا عقيدة الصدق . ومن سواهم كاذب ، لأنه يعتقد بالباطل ويقول كلمة الباطل . ومن ثم كان لهذا الوصف دلالته وإيحاؤه . وسؤالهم عن صدقهم يوم القيامة كما يسأل المعلم التلميذ النجيب الناجح عن إجابته التى استحق بها النجاح والتفوق ، أمام المدعوين لحفل النتائج ! سؤال التكريم ، وللإعلان والإعلام على رؤوس الأشهاد ، وبيان الاستحقاق ، والثناء على المستحقين للتكريم فى يوم الحشر العظيم !

فأما غير الصادقين . الذين دانوا بعقيدة الباطل ، وقالوا كلمة الكذب فى أكبر قضية يقال فيها الصدق أو يقال فيها الكذب . قضية العقيدة . فأما هؤلاء فلهم جزاء آخر حاضر مهيأ ، يقف لهم فى الانتظار : « وأعد للكافرين عذابا أليما » . .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ؛ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ؛ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ — وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

« وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ ٱللهِ مَسْئُولًا .

« قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ — إِنْ فَرَرْتُمْ — مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ . وَإِذَنْ لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ : مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ ٱللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ؟ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً .

« قَدْ يَعْلَمُ ٱللهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ؛ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ . أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيراً * يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً .

« وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا : هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيماً .

« مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً .

« وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً . وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً * وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ . فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً » .

فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث كانت الشخصية المسلمة تصاغ . ويوما بعد يوم وحدثا بعد حدث كانت هـذه الشخصية تنضج وتنمو ، وتتضح سماتها . وكانت الجماعة المسلمة التى تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة ، وقيمها الخاصة . وطابعها المميز بين سائر الجماعات .

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة ، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ؛ وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها ، فلا تعود خليطا مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم يتنزل فى إبان الابتلاء أو بعد انقضائه ، يصور الأحـداث ، ويلقى الأضواء على منحنياته وزواياه ، فتنكشف المواقف والمشاعر ، والنوايا والضمائر . ثم يخاطب القلوب وهى مكشوفة فى النور ، عارية من كل رداء وستار ؛ ويلمس فيهـا مواضع التأثر والاستجابة ؛ ويربيها يوما بعد يوم ، وحادثا بعـد حادث ؛ ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذى يريد .

ولم يترك المسلمون لهـذا القرآن ، يتنزل بالأوامر والنواهى ، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة ؛ إنمـا أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات ، والفتن والامتحانات ؛ فقد علم الله أن هـذه الخليقة البشرية لاتصاغ صياغة سليمة ، ولاتنضج نضجا صحيحا ، ولاتصح وتستقيم على منهج إلا بذلك النوع من التربية التجريبية الواقعية ، التى تحفر فى القلوب ، وتنقش فى الأعصاب ؛

وتأخذ من النفوس وتعطى فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث . أما القرآن فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة مايقع ودلالته ؛ وليوجه تلك القلوب وهى منصهرة بنار الفتنة ، ساخنة بحرارة الابتلاء ، قابلة للطرق ، مطاوعة للصياغة !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا تلك التى قضاها المسلمون فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا ، مباورا فى أحداث و كلمات . ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الله عليه ، وأن سمع الله إليه ؛ وأن كل كلمة منه وكل حركة ، بل كل خاطر وكل نية ، قد يصبح مكشوفا للناس ، يتنزل فى شأنه قرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وحين كان كل مسلم يحس الصلة المباشرة بينه وبين ربه ؛ فإذا حزبه أمر ، أو واجهته معضلة ، انتظر أن تفتح أبواب السماء غدا أو بعد غد ليتنزل منها حل لمعضلته ، وفتوى فى أمره ، وقضاء فى شأنه . وحين كان الله سبحانه بذاته العلية ، يقول : أنت يافلان بذاتك قلت كذا ، وعملت كذا وأضمرت كذا وأعلنت كذا وكن كذا ، ولاتكن كذا . . وياله من أمر هائل عجيب ! ياله من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه للعين إلى شخص معين . : هو وكل من على هذه الأرض ، وكل مافى هذه الأرض ، وكل هذه الأرض . ذرة صغيرة فى ملك الله الكبير !

لقد كانت فترة عجيبة حقا ، يتملاها الإنسان اليوم ، ويتصور حوادثها ومواقفها ، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع ، الأضخم من كل خيال !

ولكن الله لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم ، وتنضج شخصيتهم المسلمة . بل أخذهم بالتجارب الواقعية ، والابتلاءات التى تأخذ منهم وتعطى ؛ وكل ذلك لحكمة يعلمها ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلا ، ندركها وتتدبرها ؛ ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير .

***

وهذا المقطع من سورة الأحزاب يتولى تشريح حدث من الأحداث الضخمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وفى تاريخ الجماعة المسلمة ؛ ويصف موقفا من مواقف الامتحان العسيرة ، وهو غزوة الأحزاب ، فى السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة ، الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ، ولكل قيمها وتصوراتها . ومن تدبر هذا النص القرآنى ، وطريقة عرضه للحادث ، وأساوبه

فى الوصف والتعقيب ووقوفه أمام بعض المشــاهد والحوادث ، والحركات والخوالج ، وإبرازه القيم والسنن .. من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربى هذه الأمة بالأحداث والقرآن فى آن .

ولــكى ندرك طريقة القرآن الخاصة فى العرض والتوجيه فإننا قبل البدء فى شرح النص القرآنى ، نثبت رواية الحادث كما عرضتها كتب الســيرة ـ مع الاختصار المناسب ـ ليظهر الفارق بين سرد الله سبحانه ، وسرد البشر للوقائع والأحداث .

***

عن محمد ابن إسحاق قال ـ بإسناده عن جماعة :

إنه كان من حــديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم ســلام ابن أبى الحقيق النضرى ، وحيى ابن أخطب النضرى ، وكنانة ابن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة ابن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى ، فى نفر من بنى النضير ، ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرجوا حتى قدموا على قريش فى مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الــكتاب الأول والعلم بمــا أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينــكم خــير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الــكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » إلى قوله : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الــكتاب والحــكمة وآتيناهم ملــكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا » .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لمـا دعوهم إليه من حرب رسول الله ـ صــلى الله عليه وسلم ـ واتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان ـ من قيس عيلان ـ فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو ســفيان ابن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة ابن حصن فى بنى فزارة ، والحارث ابن عوف من بنى مرة ، ومسعر ابن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع .

فلما سمع بهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما أجمعوا لهم من الأمر ضرب الخندق على المدينة ؛ فعمل فيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعمل معه المسلمون فيه . فدأب فيه ودأبوا . وأبطأ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا إذن . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله فى أولئك المؤمنين . . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم » . . ثم قال تعالى يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . .

ولما فرغ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد . وخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلع فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك عسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذرارى والنساء فجعلوا فى الآطام (أى الحصون) .

وخرج عدو الله حيى ابن أخطب النضرى حتى أتى كعب ابن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده . . فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب (أى ما زال يروضه ويخاتله) حتى سمح له ــ على أن أعطاه عهدا وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب ابن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ؛ وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب ابن قشير

أخو بني عمرو ابن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وحتى قال أوس ابن قيظي أحد بنى حارثة ابن الحارث : يارسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو — وذلك عن ملأ من رجال قومه — فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة .

فأقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة ، قريبا من شهر . لم تكن بينه وبينهم حرب إلا الرميا بالنبل والحصار .

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى عيينة ابن حصن وإلى الحارث ابن العوف — وهما قائدا غطفان — فأعطاهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه (١) ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتابة ؛ ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يفعل ، بعث إلى سعد ابن معاذ (سيد الأوس) وسعد ابن عبادة (سيد الخزرج) فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أمرا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » . فقال سعد ابن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : فأنت وذاك . فتناول سعد ابن معاذ الصحيفة ، فمحا مافيها من الكتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

وأقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، لتظاهر عدوهم عليهم ، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم (٢)

(١) وكان اليهود قد وعدوهم ثمر خيبر سنة إن نصروهم (عن إمتاع الأسماع للمقريزى)

(٢) قالت أم سلمة — رضى الله عنها — شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف : المريسيع ، وخيبر ، وكنا بالحديبية ، وفى الفتح ، وحنين . لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا أخوف عندنا من الخندق . وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحرجة ، وأن قريظة لانأمنها على الذرارى ، فالمدينة تحرس حتى الصباح ، نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفا . حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا .

ثم إن نعيم ابن مسعود ابن عامر (من غطفان) أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

(وقد فعل حتى أفقد الأحزاب الثقة بينهم وبين بنى قريظة فى تفصيل مطول تحدثت عنه روايات السيرة ونختصره نحن خوف الإطالة) ...

وخذل الله بينهم ـ وبعث الله عليهم الريح فى ليلة شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم (يعنى خيامهم وما يتخذونه للطبخ من مواقد ... الخ) .

فلما انتهى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة ابن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر مافعله القوم ليلا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى زيد ابن زياد عن محمد ابن كعب القرظى قال :

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان : ياأبا عبد الله . أرأيتم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخى . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . قال : فقال حذيفة : يا ابن أخى . والله لقد رأيتنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخندق ، وصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هويا من الليل ؛ ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ، ثم يرجع ، يشرط له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى . فقال : « ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئا حتى تأتينا » قال : فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل ، ولاتقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه . قال حذيفة : فأخذت الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان ! ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف (يعنى الخيل والجمال) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون . ماتطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ،

ولا يستمسك لنا بناء . . فارتحلوا فإنى مرتحل .. ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث . فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى ألا تحدث شيئا حتى تأتينى ، ثم شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو قائم يصلى فى مرط (أى كساء) لبعض نسائه مرجل (من وشى اليمن) فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح على طرف المرط ؛ ثم ركع وسجد وإنى لفيه . فلما سلم أخبرته الخبر . . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

***

إن النص القرآنى يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصور نماذج البشر وأنماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية . هذه التى لاتنتهى بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ، ولاتنقضى بانقضاء الملابسات ، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل . ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة فى المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير .

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها ، وشهدوا أحداثها ، فإنه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها مالم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ! ويلقى الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ؛ ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة فى أعماق الصدور .

ذلك إلى جمال التصوير ، وقوته ، وحرارته ، مع التهكم القاصم ، والتصوير الساخر للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع ! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحى للإيمان والشجاعة والصبر والثقة فى نفوس المؤمنين .

إن النص القرآنى معد للعمل — لا فى وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل فى كل وسط بعد ذلك وفى كل تاريخ . معد للعمل فى النفس البشرية إطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه فى الآماد الطويلة ، والبيئات المنوعة . بنفس القوة التى عمل بها فى الجماعة الأولى .

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التى واجهتها أول مرة .

هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة . وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات . وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها . تنتفض خلائق حية ، موحية ، دافعة ، دافقة ، تعمل فى واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، فى عالم الواقع وعالم الضمير .

إن القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة . . وكفى . . إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة ؛ وإيحاء متجدد فى المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل فى كل لحظة ، متى وجد القلب الذى يتعاطف معه ويتجاوب ، ووجد الظرف الذى يطلق الطاقة المكنونة فى تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآنى مئات المرات ؛ ثم يقف الموقف ، أو يواجه الحادث ، فإذا النص القرآنى جديد ، يوحى إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر ، ويفتى فى المشكلة المعقدة ، ويكشف الطريق الخافى ، ويرسم الاتجاه القاصد ، ويفىء بالقلب إلى اليقين الجازم فى الأمر الذى يواجهه ، وإلى الاطمئنان العميق .

وليس ذلك لغير القرآن فى قديم ولاحديث .

* * *

يبدأ السياق القرآنى الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذى هم أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف . ومن ثم يجمل فى الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث ، وبدأه ونهايته ، قبل تفصيله وعرض مواقفه . لتبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها ؛ وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائمين على دعوته ومنهجه ، من عدوان الكافرين والمنافقين :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » . .

وهكذا يرسم فى هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها ، والعناصر الحاسمة فيها .. مجىء جنود الأعداء . وإرسال ريح الله وجنوده التى لم يرها المؤمنون . ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم ، وبصره بعملهم .

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال فى التفصيل والتصوير :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ؛ وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة – وماهى بعورة . إن يريدون إلا فرارا » . .

إنها صورة الهول الذى روع المدينة ، والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها . وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب . من أعلاها ومن أسفلها . فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب ؛ وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب ، وظنها بالله ، وسلوكها فى الشدة ، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج . ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا . والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لاتردد فيه .

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته ، وكل انفعالاته ، وكل خلجاته ، وكل حركاته ، ماثلا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير .

ننظر فنرى الموقف من خارجه : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم » . .

ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » . . وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق ، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب .

« وتظنون بالله الظنونا » . . ولا يفصل هذه الظنون . ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات فى شتى القلوب .

ثم تزيد سمات الموقف بروزا ، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . . والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولا مروعا رعيبا .

قال محمد ابن مسلمة وغيره : كان ليلنا بالخندق نهارا ؛ وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان ابن حرب فى أصحابه يوما ، ويغدو خالد ابن الوليد يوما ، ويغدو عمرو ابن العاص يوما ، ويغدو هبيرة ابن أبى وهب يوما ، ويغدو عكرمة ابن أبى جهل يوما . ويغدو ضرار ابن الخطاب يوما . حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفا شديدا .

ويصور حال المسلمين مارواه المقريزى فى إمتاع الأسماع . قال :

ثم وافى المشركون سحرا ، وعبأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوىّ من الليل ، ومايقدر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم . وما قدر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على صلاة ظهر ولاعصر ولامغرب ولاعشاء ؛ فجعل أصحابه يقولون : يارسول الله ماصلينا ! فيقول . ولاأنا والله ماصليت ! حتى كشف الله المشركين ، ورجع كل من الفريقين إلى منزله ، وقام أسيد ابن حضير فى مئتين على شفير الخندق ، فكرت خيل المشركين يطلبون غرة ــ وعليها خالد ابن الوليد ــ فناوشهم ساعة ، فزرق وحشى الطفيل ابن النعمان ابن خنساء الأنصارى السلمى بمزراق ، فقتله كما قتل حمزة ــ رضى الله عنه ــ بأحد . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يومئذ : « شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى صلاة العصر . ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا [(١)] » . .

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا فالتقتا ــ ولايشعر بعضهم ببعض ، ولايظنون إلا أنهم العدو . فكانت بينهم جراحة وقتل . ثم نادوا بشعار الإسلام ! « حم . لاينصرون » فكف بعضهم عن بعض . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « جراحكم فى سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » . .

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين ، وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق ، ذلك الذى كان يجيئهم من انتقاض بنى قريظة عليهم من خلفهم . فلم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق ، وأن تميل عليهم يهود ، وهم قلة بين هذه الجموع ، التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة .

ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف :

« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » ..

فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل ، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد ؛ وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله ، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون . فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك . وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم ؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل ، وروع نفوسهم ترويعا لايثبت له إيمانهم المهلهل ! فجهروا بحقيقة مايشعرون غير مبقين ولامتجملين !

---

(١) فى حديث جابر أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنما شغل يومئذ عن صلاة العصر . والظاهر أن ذلك تكرر . فمرة شغل عن العصر فقال ذلك الدعاء . ومرة شغل عن تلك الصلوات كلها . .

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون فى كل جماعة ؛ وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء . فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان !

« وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا » . .

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف ، والعودة إلى بيوتهم ، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا ، لاموضع لها ولا محل ، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم . . وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ، ثغرة الخوف على النساء والذرارى . والخطر محدق والهول جامح ، والظنون لاتثبت ولا تستقر !

« ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة » . .

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو . متروكة بلا حماية .

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة :

« وماهى بعورة » . .

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار :

« إن يريدون إلا فرارا » . .

وقد روى أن بنى حارثة بعثت بأوس ابن قيظى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقولون : « إن بيوتنا عورة » ، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا . ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم — صلى الله عليه وسلم — فبلغ سعد ابن معاذ ذلك فقال : يارسول الله لاتأذن لهم . إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا . . فردهم . .

فهكذا كان أولئك الذين يجبههم القرآن بأنهم : « إن يريدون إلا فرارا » . .

***

ويقف السياق عند هذه اللقطة الفنية المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغة . يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة غير مبقين على شىء ، ولا متجملين لشىء :

« ولو دخلت عليهم من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا » . .

ذلك كان شأنهم والأعداء بعد خارج المدينة ؛ ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الكرب والفزع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ،فأما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من أطرافها .. «ثم سئلوا الفتنة » وطلبت إليهم الردة عن دينهم « لآتوها » سراعا غيرمتلبثين ، ولا مترددين « إلا قليلا » من الوقت ، أو إلا قليــلا منهم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا ! فهى عقيدة واهنة لاتثبت ؛ وهو جبن غامر لايملكون معه مقاومة !

هكذا يكشفهم القرآن ؛ ويقف نفوسهم عارية من كل ستار .. ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد وخلف الوعد . ومع من ؟ مع الله الذى عاهدوه من قبل على غـير هذا ؛ ثم لم يرعوا مع الله عهدا :

« ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار . وكان عهد الله مسؤولا »

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق فى السـيرة : هم بنو حارثة ، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين همتا بالفشل يومها . ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدا . فذكر لهم الذى أعطوا من أنفسهم .

فأما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته ، وثبتهم ، وعصمهم من عواقب الفشل . وكان ذلك درسا من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد . فأما اليوم ، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الـكافية ، فالقرآن يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

* * *

وعند هذا المقطع ـ وهم أمام العهد المنقوض ابتغاء النجاة من الخطر والأمان من الفزع ـ يقرر القرآن إحدى القيم الباقية التى يقررها فى أوانها ؛ ويصحح التصور الذى يدعوهم إلى نقض العهد والفرار :

« قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أوالقتل ؛ وإذن لاتمتعون إلا قليلا . قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ؛ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » ..

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر ، يدفعها فى الطريق المرسوم ، وينتهى بها إلى النهاية المحتومة . والموت أو القتل قدر لامفر من لقائه ، فى موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار فى دفع القـدر المحتوم عن فارّ . فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب ، فى موعده القريب . وكل موعد فى الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل . ولاعاصم

من الله ولا من يحول دون نفاذ مشيئته . سواء أراد بهم سوءا أم أراد بهم رحمة ، ولا مولى لهم ولا نصير ، من دون الله ، يحميهم ويمنعهم من قدر الله .

فالاستسلامَ الاستسلامَ . والطاعة الطاعة . والوفاء الوفاء بالعهد مع الله ، في السراء والضراء . ورجع الأمر إليه ، والتوكل الكامل عليه . ثم يفعل الله مايشاء .

* * *

ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوقين ، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود . ويقولون لهم : « لامقام لكم فارجعوا » . . ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة . وهي — على صدقها — تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس . صورة للجبن والانزواء ، والفزع والهلع . في ساعة الشدة . والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء . والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه . والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد . . والتعبير القرآني يرسم هذه الصورة في لمسات فنية مبدعة لاسبيل إلى استبدالها أو ترجمتها في غير سياقها المعجز :

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولايأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم . فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت . فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد . أشحة على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم . ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا » . .

ويبدأ هذا النص بتقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة . الذين يدعون إخوانهم إلى القعود « ولايأتون البأس إلاقليلا » ولايشهدون الجهاد إلا لماما . فهم مكشوفون لعلم الله ، ومكرهم مكشوف .

ثم تأخذ الريشة المعجزة في رسم سمات هذا النموذج :

« أشحة عليكم » ففي نفوسهم كزازة على المسلمين . كزازة بالجهد وكزازة بالمال ، وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء .

« فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت » . .

وهي صورة شاخصة ، واضحة الملامح ، متحركة الجوارح ، وهي في الوقت ذاته مضحكة ، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار !

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجىء الأمن :

« فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » . .

خرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش ، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ، ما شاء لهم الادعاء ، من البلاء فى القتال والفضل فى الأعمال ، والشجاعة والاستبسال . .

ثم هم : « أشحة على الخير » . .

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم ؛ مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان !

وهذا النموذج من الناس لاينقطع فى جيل ولا فى قبيل . فهو موجود دائما . وهو شجاع فصيح بارز حينما كان هناك أمن ورخاء . وهو جبان صامت منزو حينما كان هناك شدة وخوف . وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير ، لاينالهم منهم إلا سلاطة اللسان !

« أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم » . .

فهذه هى العلة الأولى . العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان ، ولم تهتد بنوره ، ولم تسلك منهجه . « فأحبط الله أعمالهم » .. ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك .

« وكان ذلك على الله يسيرا » . .

وليس هنالك عسير على الله ، وكان أمر الله مفعولا . .

فأما يوم الأحزاب فيمضى النص فى تصويرهم صورة مضحكة زرية :

« يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » . .

فهم مايزالون يرتعشون ، ويتخاذلون ، ويخذّلون ! ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت ، وأنه قد ذهب الخوف ، وجاء الأمان !

« وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم » . .

ياللسخرية ! وياللتصوير الزرى ! وياللصورة المضحكة ! وإن يأت الأحزاب يود هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام . ويتمنون أن لوكانوا من أعراب البادية ، لايشاركون أهل المدينة فى حياة ولا فى مصير . ولا يعلمون — حتى — ماجرى عند

أهلها . إنما هم يجهلونه ، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب ! مبالغة فى البعد والانفصال ، والنجاة من الأهوال !

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة ، مع أنهم قاعدون ، بعيدون عن المعركة ، لا يتعرضون لها مباشرة ؛ إنما هو الخوف من بعيد ! والفزع والهلع من بعيد ! « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » . .

وبهذا الخط ينتهى رسم الصورة . صورة ذلك النموذج الذى كان عائشا فى الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة ؛ والذى ما يزال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل . بنفس الملامح ، وذات السمات . . ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج ، والسخرية منه ، والابتعاد عنه ، وهوانه على الله وعلى الناس .

***

ذلك كان حال المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى الصفوف ؛ وتلك كانت صورتهم الرديئة . ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعا إلى هذه الصورة الرديئة . . كانت هنالك صورة وضيئة فى وسط الظلام ، مطمئنة فى وسط الزلزال ، واثقة بالله ، راضية بقضاء الله ، مستيقنة من نصر الله ، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب .

ويبدأ السياق هذه الصورة الوضيئة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » . .

وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد ، مثابة الأمان للمسلمين ، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان . وإن دراسة موقفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم ؛ وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ وتطلب نفسه القدوة الطيبة ؛ ويذكر الله ولا ينساه .

ويحسن أن نلم بلمحات من هذا الموقف على سبيل المثال . إذ كنا لا نملك هنا أن نتناوله بالتفصيل .

خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعمل فى الخندق مع المسلمين . يضرب بالفأس ، ويجرف التراب بالمسحاة ، ويحمل التراب فى المكتل . ويرفع صوته مع المرتجزين ، وهم يرفعون

أصواتهم بالرجز فى أثناء العمل ، فيشاركهم الترجيع ! وقد كانوا يتغنون بأغان ساذجةمن وحى الحوادث الجارية : كان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اسمه ، وسماه عمرا . فراح العاملون فى الخندق يغنون جماعة بهذا الرجز الساذج :

سماه من بعد جعيل عمرا ✽ وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا فى ترجيعهم بكلمة « عمرو » ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « عمرا » . وإذا مروا بكلمة « ظهر » قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ظهرا » .

ولنا أن نتصور هذا الجو الذى يعمل فيه المسلمون ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — بينهم ، يضرب بالفأس ، ويجرف بالمسحاة ، ويحمل فى المكتل ، ويرجع معهم هذا الغناء . ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو فى أرواحهم ؟ وأى ينبوع يتفجر فى كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز .

وكان زيد ابن ثابت فيمن ينقل التراب . فقال — صلى الله عليه وسلم — أما إنه نعم الغلام ! وغلبته عيناه فنام فى الخندق . وكان القر شديدا . فأخذ عمارة ابن حزم سلاحه ، وهو لايشعر . فلما قام فزع . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك» ! ثم قال : « من له علم بسلاح هذا الغلام» ؟ فقال عمارة : يارسول الله هو عندى . فقال : فرده عليه . ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا !

وهو حادث كذلك يصور يقظة العين والقلب ، لكل من فى الصف ، صغيرا أو كبيرا . كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة : « يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك ! » ويصور فى النهاية ذلك الجو الذى كان المسلمون يعيشون فيه فى كنف نبيهم ، فى أحرج الظروف . .

ثم كانت روحه — صلى الله عليه وسلم — تستشرف النصر من بعيد ، وتراه رأى العين فى ومضات الصخور على ضرب المعاول ؛ فيحدث بها المسلمين ، ويبث فيهم الثقة واليقين .

قال ابن إسحاق : وحدثت عن سلمان الفارسى أنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت علىّ صخرة ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — قريب منى . فلما رآنى أضرب ، ورأى شدة المكان علىّ ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة . قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قال : قلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! ماهذا الذى رأيت ، لمع

للعول وأنت تضرب ؟ قال : « أو قد رأيت ذلك ياسلمان » ؟ قال : قلت . نعم : قال : « أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن . وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب . وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق » .

وجاء فى « إمتاع الأسماع للمقريزى » أن هـذا الحادث وقع لعمر ابن الخطاب بحضور سلمان . رضى الله عنهما .

ولنا أن نتصور اليوم كيف يقع مثل هذا القول فى القلوب ، والخطر محدق بها محيط .

ولنا أن نضيف إلى تلك الصور الوضيئة صورة حذيفة عائدا من استطلاع خبر الأحزاب ؛ وقد أخذه القر الشديد ؛ ورسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلى فى ثوب لإحـدى أزواجه . فإذا هو فى صلاته واتصاله بربه ، لايترك حذيفة يرتعش حتى ينتهى من صلاته . بل يأخذه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين رجليه ، ويلقى عليه طرف الثوب ليدفئه فى حنو . ويمضى فى صلاته . حتى ينتهى ، فينبئه حذيفة النبأ ، ويلقى إليه بالبشرى التى عرفها قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعث حذيفة يبصر أخبارها !

أما أخبار شجاعته ـ صـلى الله عليه وسلم ـ فى الهول ، وثباته ويقينه ، فهى بارزة فى القصة كلها ، ولا حاجة بنا إلى نقلها ، فهى مستفيضة معروفة .

وصدق الله العظيم : « لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » . .

***

ثم تأتى صورة الإيمان الواثق المطمئن ؛ وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة ، فى مواجهة الهول ، وفى لقاء الخطر . الخطر الذى يزلزل القلوب المؤمنة ، فتتخذ من هـذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين :

« ولمـا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

لقد كان الهول الذى واجهه المسلمون فى هذا الحادث من الضخامة ؛ وكان الـكرب الذى واجهوه من الشدة ؛ وكان الفزع الذى لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . .

لقـد كانوا ناسا من البشر . وللبشر طاقة . لايكلفهم الله مافوقها . وعلى الرغم من ثقتهم

بنصر الله فى النهاية ؛ وبشارة الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهم ، تلك البشارة التى تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . . على الرغم من هـذا كله ، فإن الهول الذى كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم .

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة . والرسول — صـلى الله عليه وسلم — يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : « من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع . يشرط له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الرجعة . أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة » . . ومع هذا الشرط بالرجعة ، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله فى الجنة ، فإن أحدا لا يلبى النداء . فإذا عين بالاسم حذيفة قال : فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ! . . ألا إن هذا لايقع إلا فى أقصى درجات الزلزلة . .

ولـكن كان إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس . . كان إلى جانب هذا كله الصلة التى لاتنقطع بالله ؛ والإدراك الذى لايضل عن سنن الله ؛ والثقة التى لاتتزعزع بثبات هذه السنن ؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا فى انتظار النصر . ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتـكم مثل الذين خلوا من قبلـكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » . . وهاهم أولاء يزلزلون . فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا : « هذا ماوعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله » . . « ومازادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

« هذا ماوعدنا الله ورسوله » . . هذا الهول ، وهذا الـكرب ، وهذه الزلزلة ، وهذا الضيق . وعدنا عليه النصر . . فلا بد أن يجىء النصر : « وصدق الله ورسوله » . صدق الله ورسوله فى الأمارة وصدق الله ورسوله فى دلالتها . . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله : « وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » . .

لقد كانوا ناسا من البشر ، لايملـكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر ، وضعف البشر . وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حـدود جنسهم البشرى ؛ ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ؛ ويفقدوا خصائصه ومميزاته . فلهـذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشرا ، ولا يتحولوا جنسا آخر . لاملائـكة ولاشياطين ، ولابهيمة ولاحجرا . . كانوا ناسا من البشر يفزعون ، ويضيقون بالشدة ، ويزلزلون للخطر الذى يتجاوز الطاقة . ولـكنهم كانوا — مع هـذا — مرتبطين بالعروة الوثقى التى تشدهم إلى الله ؛ وتمنعهم من السقوط ؛ وتجـدد فيهم الأمل ،

وتحرسهم من القنوط . . وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا فى تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد فى تاريخ العصور . علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا ، لم يتخلوا عن طبيعة البشر ، بما فيها من قوة وضعف . وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا فى بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبنى الإنسان ، فى الاحتفاظ بخصائص البشر فى الأرض مع الاستمساك بعروة السماء .

وحين ترانا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق .. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا ؟ أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا ! ولكن علينا فى الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا نمجده لأنه من فطرتنا البشرية ! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا ! هنالك العروة الوثقى . عروة السماء . وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة ، ونسترد الثقة والطمأنينة ، ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر . فنثبت ونستقر ، ونقوى ونطمئن ، ونسير فى الطريق . .

وهذا هو التوازن الذى صاغ ذلك النموذج الفريد فى صدر الإسلام . النموذج الذى يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده ، وثباته على عهده مع الله ، فمنهم من لقيه ، ومنهم من ينتظر أن يلقاه :

« من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا » . .

هذا فى مقابل ذلك النموذج الكريه . نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار . ثم لم يوفوا بعهد الله : « وكان عهد الله مسؤولا » . .

روى الإمام أحمد — بإسناده — عن ثابت قال : « عمى أنس ابن النضر — رضى الله عنه — سميت به — لم يشهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم بدر ، فشق عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غبت عنه ! لئن أرانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم أحد . فاستقبل سعدابن معاذ — رضى الله عنه — فقال له أنس — رضى الله عنه — يا أبا عمرو . أين واهاً لريح الجنة ! إنى أجده دون أحد . قال : فقاتلهم حتى قتل — رضى الله عنه — قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته — عمتى الرُّبيِّع ابنة النضر — : فما عرفت أخى إلا ببنانه .

قال : فنزلت هذه الآية : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ... الخ » قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه رضى الله عنهم . (ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان ابن المغيرة) .

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان ، فى مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق . لتتم المقابلة فى معرض التربية بالأحداث وبالقرآن .

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء ، وعاقبة النقض والوفاء ؛ وتفويض الأمر فى هذا كله لمشيئة الله :

« ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين — إن شاء — أو يتوب عليهم . إن الله كان غفورا رحيما » . .

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد — ليرد الأمر كله إلى الله ، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع . فليس شىء منها عبثا ولامصادفة . إنما تقع وفق حكمة مقدرة ، وتدبير قاصد . وتنتهى إلى ماشاء الله من العواقب . وفيها تتجلى رحمة الله بعباده . ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر : « إن الله كان غفورا رحيما » . .

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التى تصدق ظن المؤمنين بربهم ؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم ؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية :

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » . .

وقد بدأت المعركة ، وسارت فى طريقها ، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها فى يد الله ، يصرفها كيف يشاء . وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره . فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ماتم من الأحداث والعواقب ، تقريرا لهذه الحقيقة ، وتثبيتا لها فى القلوب ؛ وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح .

* * *

ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم . بل دارت كذلك على بنى قريظة حلفاء المشركين من يهود :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ،

فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شىء قديرا » . .

فأما قصة هذا فتحتاج إلى شىء من إيضاح قصة اليهود مع المسلمين . .

إن اليهود فى المدينة لم يهادنوا الإسلام بعد وفوده عليهم إلا فترة قصيرة . وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إليها أوجب لهم فيها النصرة والحماية مشترطا عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ، ولا يمدوا يدا بأذى .

ولكن اليهود مالبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول . وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة . كذلك أحسوا بخطر التنظيم الجديد الذى جاء به الإسلام للمجتمع بقيادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد كانوا قبل ذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا فى المدينة . فلما وحد الإسلام الأوس والخزرج تحت قيادة نبيهم الكريم لم يجد اليهود الماء العكر الذى كانوا يصطادون بين الفريقين فيه !

وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير إسلام حبرهم وعالمهم عبد الله ابن سلام . ذلك أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم وأمر أهل بيته فأسلموا معه . ولكنه إن هو أعلن إسلامه خاف أن تتقول عليه يهود . فطلب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يسألهم عنه قبل أن يخبرهم بإسلامه ! فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . فخرج عندئذ عبد الله بن سلام إليهم ، وطلب منهم أن يؤمنوا بما آمن به . فوقعوا فيه ، وقالوا قالة السوء ، وحذروا منه أحياء اليهود . وأحسوا بالخطر الحقيقى على كيانهم الدينى والسياسى . فاعتزموا الكيد لمحمد — صلى الله عليه وسلم — كيدا لاهوادة فيه .

ومنذ هذا اليوم بدأت الحرب التى لم تضع أوزارها قط حتى اليوم بين الإسلام ويهود !

لقد بدأت فى أول الأمر حربا باردة ، بتعبير أيامنا هذه . بدأت حرب دعاية ضد محمد — عليه الصلاة والسلام — وضد الإسلام . واتخذوا فى الحرب أساليب شتى مما عرف به اليهود فى تاريخهم كله . اتخذوا خطة التشكيك فى رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — وإلقاء الشبهات حول العقيدة الجديدة . واتخذوا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض . بين الأوس والخزرج مرة ، وبين الأنصار والمهاجرين مرة . واتخذوا طريقة التجسس على المسلمين لحساب أعدائهم من المشركين . واتخذوا طريقة اتخاذ بطانة من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يوقعون

بواسطتهم الفتنة فى صفوف المسلمين . . وأخيرا أسفروا عن وجوههم واتخذوا طريق التأليب على المسلمين ، كالذى حدث فى غزوة الأحزاب . .

وكانت أهم طوائفهم بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . وكان لكل منها شأن مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومع المسلمين .

فأما بنو قينقاع وكانوا أشجع يهود ، فقد حقدوا على المسلمين انتصارهم ببدر ؛ وأخذوا يتحرشون بهم ويتنكرون للعهد الذى بينهم وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيفة أن يستفحل أمره فلا يعودون يملكون مقاومته ، بعد ما انتصر على قريش فى أول اشتباك بينه وبينهم .

وقد ذكر ابن هشام فى السيرة عن طريق ابن إسحاق ما كان من أمرهم قال :

وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال : « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » قالوا : يامحمد ، إنك ترى أنا قومك ! لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وذكر ابن هشام عن طريق عبد الله ابن جعفر قال :

كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت يهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وأكمل ابن إسحاق سياق الحادث قال :

فحاصرهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى نزلوا على حكمه ، فقام عبد الله ابن أبى ابن سلول [١] ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يامحمد ، أحسن فى موالىّ — وكانوا حلفاء

---

(١) رأس المنافقين .

الخزرج — قال : فأبطأ عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أرسلنى . وغضب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى رأوا لوجهه ظللا . ثم قال : ويحك ! أرسلنى قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ . أربع مئة حاسر . وثلاث مئة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود . تحصدهم فى غداة واحدة . إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هم لك .

وكان عبد الله ابن أبى لا يزال صاحب شأن فى قومه . فقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شفاعته فى بنى قينقاع على أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح . وبذلك تخلصت المدينة من قطاع يهودى ذى قوة عظيمة .

وأما بنو النضير ، فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج إليهم فى سنة أربع بعد غزوة أحد يطلب مشاركتهم فى دية قتيلين حسب المعاهدة التى كانت بينه وبينهم . فلما أتاهم قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

ثم أخذوا فى تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة ، فألهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما كان من أمرهم فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، وأمر بالتهيؤ لحربهم . فتحصنوا منه فى الحصون . وأرسل إليهم عبد الله ابن أبى ابن سلول (رأس النفاق) أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . ولكن المنافقين لم يفوا بعهدهم . وقذف الله الرعب فى قلوب بنى النضير فاستسلموا بلا حرب ولا قتال . وسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . ففعل . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . ومن أشرافهم — ممن سار إلى خيبر — سلام ابن أبى الحقيق ، وكنانة ابن الربيع ابن أبى الحقيق ، وحيى ابن أخطب . . هؤلاء الذين كان لهم ذكر فى تأليب مشركى قريش وغطفان فى غزوة الأحزاب .

***

والآن نجىء إلى غزوة بنى قريظة . وقد مر من شأنهم فى غزوة الأحزاب أنهم كانوا إلبا

على المسلمين مع المشركين ، بتحريض من زعماء بنى النضير ، وحيي ابن أخطب على رأسهم . وكان نقض بنى قريظة لعهدهم مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى هذا الظرف أشق على المسلمين من هجوم الأحزاب من خارج المدينة .

ومما يصور جسامة الخطر الذى كان يتهدد المسلمين ، والفزع الذى أحدثه نقض قريظة للعهد ماروى من أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين انتهى إليه الخبر ، بعث سعد ابن معاذ سيد الأوس ، وسعد ابن عبادة سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخوات ابن جبير — رضى الله عنهم — فقال : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس . وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » . . (مما يصور ماكان يتوقعه — صلى الله عليه وسلم — من وقع الخبر فى النفوس) .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم . نالوا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا : من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولاعقد ! . . ثم رجع الوفد فأبلغوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالتلميح لا بالتصريح . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « الله أكبر . أبشروا يامعشر المسلمين » . . (تثبيتا للمسلمين من وقع الخبر السيء أن يشيع فى الصفوف) .

ويقول ابن إسحاق : وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم . حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ... الخ .

فهكذا كان الأمر إبان معركة الأحزاب .

فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره ، ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيرا ؛ وكفى الله المؤمنين القتال . . رجع النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة منصورا ، ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يغتسل من وعثاء المرابطة ، فى بيت أم سلمة — رضى الله عنها — إذ تبدى له جبريل — عليه السلام — فقال : « أوضعت السلاح يارسول الله ؟ قال — صلى الله عليه وسلم — : نعم » . قال : « ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها ! وهذا أوان رجوعى من طلب القوم » . ثم قال : « إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة » — وكانت على أميال من المدينة — . وذلك بعد صلاة الظهر . وقال — صلى الله عليه وسلم :

« لايصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس فى الطريق ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق ، وقالوا : لم يرد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا تعجيل المسير . وقال آخرون : لانصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يعنف واحدا من الفريقين .

وتبعهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم (صاحب عبس وتولى أن جاءه الأعمى ...) رضى الله عنه — وأعطى الراية لعلى ابن أبى طالب — رضى الله عنه — ثم نازلهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة . فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد ابن معاذ سيد الأوس — رضى الله عنه — لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية . واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك كما فعل عبد الله ابن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع حتى استطلقهم من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك . ولم يعلموا أن سعدا — رضى الله عنه — كان قد أصابه سهم فى أكحله (وهو عرق رئيسى فى الذراع لايرقأ إذا قطع) أيام الخندق ، فكواه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أكحله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب ؛ وقال سعد — رضى الله عنه — فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنا لها ؛ وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ؛ ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه . وقدر عليهم أن ينزلوا على حكمه باختيارهم ، طلبا من تلقاء أنفسهم .

فعند ذلك استدعاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من المدينة ليحكم فيهم . فلما أقبل — وهو راكب على حمار قد وطأوا له عليه — جعل الأوس يلوذون به ، يقولون : ياسعد إنهم مواليك ، فأحسن عليهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه . وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال — رضى الله عنه — : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم !

فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون فأنزلوه ، إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس قال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن هؤلاء — وأشار إليهم — قد نزلوا على حكمك . فاحكم فيهم بما شئت » فقال — رضى الله عنه — : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم » . قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال: «نعم » . قال: وعلى من هاهنا (وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إجلالا وإكراما وإعظاما) . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم » . فقال ـ رضى الله عنه ـ : إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » (أى سماوات) .

ثم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأخاديد فخدت فى الأرض ، وجىء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم . وكانوا ما بين السبع مئة ، والثمانى مئة . وسبى من لم ينبت (كناية عن البلوغ) مع النساء والأموال . وفيهم حيى ابن أخطب . وكان قد دخل معهم فى حصنهم كما عاهدهم .

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود ، وضعفت حركة النفاق فى المدينة ؛ وطأطأ المنافقون رؤوسهم ، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون . وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون فى غزو المسلمين ، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم . حتى كان فتح مكة والطائف . ويمكن أن يقال : إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين . وإن طرد اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم ، وإنه كان فارقا واضحا بين عهدين فى نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها .

***

فهذا مصداق قول الله سبحانه :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها . وكان الله على كل شىء قديرا » .

والصياصى : الحصون . والأرض التى ورثها المسلمون ولم يطؤوها ، ربما كانت أرضا مملوكة لبنى قريظة خارج محلتهم . وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم . وربما كانت إشارة إلى تسليم بنى قريظة أرضهم بغير قتال . ويكون الوطء معناه الحرب التى توطأ فيها الأرض .

« وكان الله على كل شىء قديرا » . .

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع ؛ وهو التعقيب الذى يرد الأمر كله إلى الله . وقد مضى السياق فى عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله . ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة . تثبيتا لهذه الحقيقة الكبيرة ، التى يثبتها الله فى قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة ، وبالقرآن بعد الأحداث ، ليقوم عليها التصور الإسلامى فى النفوس .

***

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم . وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التى جاء القرآن ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة وفى حياتها على السواء .

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية ؛ ويصبح القرآن دليلا وترجمانا للحياة وأحداثها ، ولاتجاهها وتصوراتها . وتستقر القيم ، وتطمئن القلوب ، بالابتلاء وبالقرآن سواء !

انتهى الجزء الواحد والعشرون ويليه الجزء
الثانى والعشرون مبدوءاً بقوله تعالى :
« يا أيها النبى قل لأزواجك »

كتب للمؤلف

الكتاب	الطبعة	الناشر
١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	» » » »
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(» رابعة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثالثة)	» »
٨ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
٩ ـ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠ ـ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١١ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٢ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٣ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٤ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٥ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٦ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »
١٧ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	... »

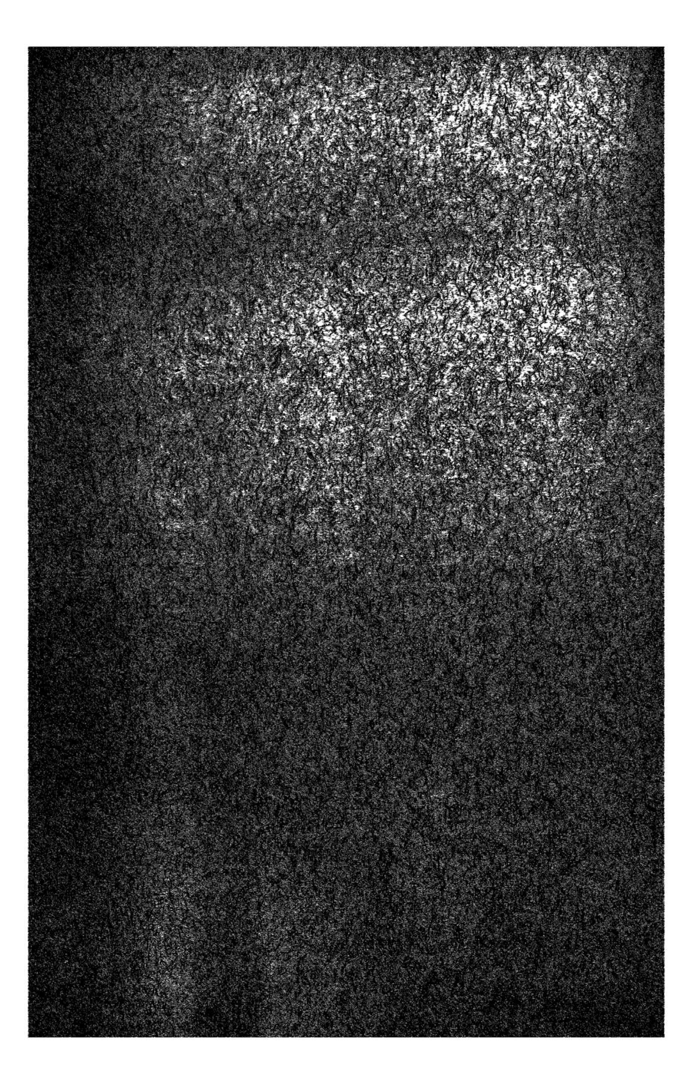
الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى

(٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر)

(٤) قافلة الرقيق (شعر)



Bibliotheca Alexandrina
0593921